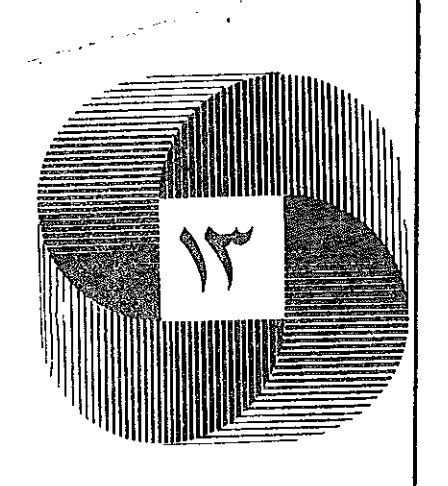
الفصل الثالث عشر

العصر العربي الإسلامي

في

حضارة وادي الرافدين





- تحول مجرى الفرات الى جهة الكوفة
- تأسيس مدينة الكوفة
- تحول مجرى دجلة الى جهة واسط
- مدينة واسط وانهار البطايح
- مدينة البصرة وانهارها
- الري في العصر العباسي
- انهر الفرات في الدلتا
- انهر الفرات الاوسط
- ارض السواد في العهد العباسي
- انهر دجلة
- عهد الانحطاط

«ان اعمال الخلفاء في ري العراق في الايام الماضية تشبه اعمال الري في مصر والولايات المتحدة الامريكية واوستراليا في هذا العصر. ان العراق ليس بحاجة الى تخطيط جديد لشق الترع وفتح الجداول فان في الآثار الباقية من العصر العباسي كفاية لتنظيم الزراعة والري في العراق.»

سير وليام ويلكوكس



١ ـ فيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ واثره في تطور الحالة الجغرافية

تتميز بداية العصر العربي الاسلامي باحداث مهمة غيرت المعالم الجغرافية والطوبوغرافية في البلاد ، فقد كان الفيضان الكبير الذي وقع سنة ٦٢٧ / ٦٢٨ م والذي عده البعض نقطة تحول مهمة في تاريخ العراق تمخضت عنها نتائج خطيرة في تطور مجرى نهري الفرات ودجلة ، فتحول كل من النهرين في منطقة الدلتا عن اتجاهه وقد رافق هذا التحول انتقال العمران من مكان الى آخر . وفي الوقت نفسه ادى هذا الطغيان الى تخريب الجداول والسدود واستولى على الاراضي المنخفضة الممتدة بين الكوفة والبصرة فجعل منها منطقة واسعة من البحيرات والمستنقعات صارت تعرف في العصر العربي الاسلامي باسم « البطائح »[1] .

٢ ـ تحول مجرى نهر الفرات من جهة بابل الى جهة الكوفة

ان اهم تطور حدث في نهر الفرات انه تحول من مجراه باتجاه بابل الى جهة شط الهندية الحالي (مجرى بالاكوباس القديم) وذلك من نقطة تقع فوق بابل . هذا هو التحول الثالث في مجرى الفرات ضمن الدلتا ، اذ كان في بادىء الامر يجري شرقا نحو كوثى ثم تحول باتجاه بابل (شط الحلة الحالي) في العهد البابلي القديم (انظر الفقرة ٤ من الفصل التاسع) وقد بقي محافظا على هذا المجرى البابلي مدة تربو على الفي سنة ، وهي اطول مدة استقر فيها الفرات في مجرى واحد في منطقة الدلتا حتى تحول في طوره الثالث الى جهة شط الهندية الحالي نتيجة لفيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ م ـ المذكور . لقد سبق ان ذكرنا ان مجرى بالاكوباس (شط الهندية الحالي) كان منذ ان تحول مجرى الفرات من جهة كوثى الى جهة بابل مصرفا لمياه الفرات الفائضة في موسم الفيضان ، وقد كان مصدر خطر بعد ان اخذ صدره يتوسع حتى اصبح سده بعد الفيضان من الامور الصعبة الشاقة حتى جاء الاسكندر فاهتم للامر وانتخب موقعا جديدا للصدر تمكن بوساطته التحكم بالمياه وضبطها . فيتضح لنا من ذلك ان مجرى الفرات كان يميل منذ ذلك الوقت الى ان يتجه نحو الغرب ، اي نحو شط الهندية الحالي وذلك لانخفاض تلك الجهة ، الا ان الجهود التي كانت تبذل دوما للتحكم بصدر فرع الهندية هي التي اعاقت او اخرت

---

(١) حول المراجع عن هذا الفيضان ، راجع الكتاب « المصادر عن ري لعراق » للدكتور احمد سوسة ، ص ١٥١ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٩ .

تحول مجرى النهر الى هذا الاتجاه•وهكذا اخذ النهر ينتظر فرصة ملائمة للتحول الى ذلك الاتجاه حتى وجد تلك الفرصة في ظروف الانحلال التي سادت في البلاد في اواخر عهد الساسانيين ، ثم حدوث الفيضان الكبير الذي مر ذكره فقفر من حوضه الذي يمر ببابل واتجه نحو الغرب محتلا مصرف بالاكوباس القديم فاصبح هذا المصرف المجرى الرئيسي لنهر الفرات ، وبقي على هذه الحال حتى جاء العرب فشيدوا على ضفافه مدينة الكوفة احدى العواصم الكبرى ، وقد سمي الفرات في ذلك الوقت نهر الكوفة وقد سماه بعض مؤرخي العرب العلقمي ايضا •

٣ — تأسيس مدينة الكوفة

يرجع تاريخ انشاء مدينة الكوفة الى اوائل العهد العربي فشيدها سعد ابن ابي وقاص في سنة ١٧ هجرية (٦٣٨ م) في عهد خلافة عمر بن الخطاب على الضفة اليمنى لنهر الفرات (مجرى بالاكوباس) بعد فتح العراق لتكون مقرا للجيش العربي ، وقد اختير محلها في طرف البادية بالقرب من مدينة الحيرة لئلا يكون بينها وبين معسكر الخلافة ما يعيق الحركات العسكرية كما رغب في ذلك عمر • لذلك فقد كانت في بادىء الامر معسكرا للجيش العربي ومقره الدائمي وبعد اقامة الجامع انشئت البيوت واصبحت مدينة عامرة •

وكانت الكوفة تحتل آنذاك مساحة واسعة مابعد ساحل النهر ، وكان في وسط المدينة الجسر الشهير المعروف بجسر الكوفة الذي شيد عبر الفرات والذي اصبح فيما بعد الممر الرئيسي لطريق الحج البري في عهد بني العباس•ومن قراها القادسية وهي تقع على طريق مكة غرب الكوفة بمسافة مرحلة وكان يطلق عليها اسم قادسية الكوفة لتمييزها عن قادسية دجلة في جوار سامراء وفي جوار هذه القرية انتصر سعد بن ابي وقاص على جيش الفرس ومهد لفتح العراق فيما بعد • وكان موقع النجف الحالي مقبرة الكوفة بيد انه بعد اقامة مرقد الامام علي فيه اصبح من المراكز المهمة ، حيث اقيمت فيه مدينة النجف التي هي الان من المزارات الاسلامية المقدسة • هذا ويذكر المؤرخون ان مدينة الكوفة كانت مشرفة على الخراب في القرن السادس الهجري عندما زارها ابن جبير حيث وجد سورها متهدما •

٤ — مصير فرع بابل بعد تحول مجرى الفرات عنه

اما مصير فرع بابل بعد تحول مجرى الفرات عنه فقد اصبح عبارة عن فرع ثانوي اطلق عليه اسم (نهر سورا) ويمكن مشاهدة آثار الصدر الذي كان يجري فيه نهر سورا هذا شمال مدينة المسيب الحالية بقليل ، حيث يشاهد المرء وهو يقطع الطريق التي تصل الاسكندرية بالمسيب ضفافا مرتفعة لنهر قديم واسع يمتد عدة اميال شرقا • وكان يعرف القسم الاعلى منه نهر سورا الاعلى والقسم الاسفل الذي يمتد جنوب مدينة بابل باسم « نهر سورا الاسفل » (انظر ما يلي عن نهري سورا والعلقمي — الفقرة ١٢ هـ) •

٥ ـ تحول مجرى نهر دجلة من جهة العمارة الى جهة شط الغراف

وقد طغت مياه نهر دجلة في نفس الوقت الذي طغى فيه نهر الفرات فتحول مجرى النهر من اتجاهه نحو العمارة الى اتجاه نهر الغراف الحالي، فقد لعب نهر دجلة نفس الدور الذي لعبه نهر الفرات اذ تناوب الفرعان ، فرع العمارة وفرع الغراف ، في احتلال المجرى الرئيسي للنهر في مختلف الادوار ، فبعد ان كان المجرى الرئيسي يسير في الاصل باتجاه فرع العمارة تحول الى اتجاه فرع الغراف في العهد السومري والبابلي (حول اصل فرع الغراف ومنشئه انظر الفقرة ١٠ من الفصل السادس) ، ثم صارت كميات الغرين تتكاثر مع مرور الزمن في قسمه الاسفل الذي يلتقي بنهر الفرات في اور ،الامر الذي ادى الى انعاش فرع العمارة حتى صار هذا الفرع الاخير بعد مرور الزمن يسحب اكثر مياه نهر دجلة متوسعا على حساب فرع الغراف، وكانت النتيجة ان جف مجرى الغراف تدريجيا وانقطعت عنه المياه في موسم شح المياه (موسم الصيهود) فانتقل العمران الى جهة فرع العمارة . ويعتقد ان هذا التحول من فرع الغراف الى فرع العمارة قد تم نهائيا في اوائل الالف الاولى للميلاد بحيث اضطر الزراع الى اقامة سد على فوهة فرع العمارة لتحويل بعض المياه الى فرع الغراف الذي غدا جدولا ثانويا ، لذلك صار يسمى بالدجيل (تصغير دجلة) ولما طغت مياه نهر دجلة في سنة ٦٢٧/٦٢٨ م عاد مجرى النهر وتحول الى اتجاهه القديم نحو فرع الغراف بحيث أصبح هذا المجرى الرئيسي لنهر دجلة ، وهكذا صارت مياه نهر دجلة تنساب في العهد الاسلامي بطريق مجرى الغراف الجديد الى الاهوار الواسعة (البطائح) التي تكونت في الجنوب بين الكوفة والبصرة ، فقلت المياه في مجرى فرع العمارة بعد ان كان في اوائل القرن السابع للميلاد المجرى الرئيسي لنهر دجلة[٢] .

وقد لعب مجرى الغراف الجديد دورا مهما في زمن العرب حيث استغل قسم كبير من مياهه لارواء اراضي الغراف الخصبة وفتحت عدة جداول تأخذ من ضفتيه لذلك الغرض . هذا وفي الوقت نفسه شيدت على ضفافه عدة مدن اكبرها مدينة واسط التي اصبحت من اهم مدن العصر العربي الاسلامي . اما فرع العمارة فصار يعرف، باسم دجلة العورة او دجلة الاعمى وقد سمي ايضا « فيض البصرة » في قسمه الاسفل ، ويظهر ان كلمة اعور او اعمى كانت تطلق على الانهر التي تكثر فيها الراسبات الغرينية ، وان هذا الاصطلاح لايزال يستعمل الان حيث يقال ان النهر اعمى ، اي ممتليء بالراسبات او مندرس .

والظاهر ان العوامل التي ادت الى تحول مجرى نهر دجلة من مجراه باتجاه العمارة الى جهة الغراف ترجع بوادرها الى زمن قباذ فيروز (٤٨٨ـ٥٣١ م) ، ففي عهده حدثت بثوق في ضفاف

---

(٢) يلاحظ في هذا الصدد ان مجرى دجلة الجديد مع انه كان يجري في اتجاه شط الغراف الحالي، الا انه كان يسير الى الشرق منه ، وان آثاره التي يمكن مشاهدتها على مسافة قليلة من شرقي مجرى الغراف الحالي تعرف باسم اثار نهر الدجيلة القديم .

نهر دجلة اليمنى ادت الى غمر مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية في جهة الغراف ، ولما تولى ابنه كسرى انوشروان عرش المملكة الفارسية اقام سدودا في مواضع البثوق عند الموضع المعروف بالخيزرانة لصيانة مجرى النهر الذي يتجه صوب العمارة وتحويل المياه اليه • ثم عادت المياه تفتح لها ثغرات في اتجاه مجرى الغراف في عهد كسرى ابرويز (٥٩٠ـ٦٢٨ م) فحاول ان يسد هذه الثغرات الا ان الفيضان الكبير الذي حدث سنة ٦٢٧/٦٢٨ م سبب حدوث ثغرات واسعة في الضفاف فانتهى الامر الى تحول مجرى نهر دجلة الى جهة شط الغراف الحالي في جوار الخيزرانة؛ وهو الموضع الذي كان يفترق منه المجريان ، مجرى العمارة ومجرى الغراف • وهنا في نفس هذا الموضع اقام العرب سدا على صدر مجرى الغراف لكي يحولوا قسما عن مجرى النهر الى مجرى العمارة الذي انتابه الجفاف في موسم الصيهود ،وصار هذا السد يعرف بقناطر الخيزران ، ولايزال هذا الموضع يعرف باسمه القديم الذي كان يعرف به في العصر العباسي فهو يسمى اليوم « تلول الخيزرانة » ويقع على الضفة الشرقية من شط الدجيلة القديم (شط الغراف الحالي) وتسمى اليوم المنطقة التي تقع فيها هذه التلول باسم اراضي الخيزرانة •

ولموضع قناطر الخيزرانة اهمية تاريخية ، فهو الموضع الذي انشئت فيه القناطر على صدر فرع الغراف الذي يسير نحو واسط بغية تحويل قسم من المياه الى المجرى الشرقي الذي يسير نحو العمارة[٢] • وكان هذا السد قد انشيء لاول مرة في عهد كسرى ابرويز وانفق عليه مالا كثيرا الا ان تيار المياه جرفه وجرت مياه المجرى كلها الى فرع واسط (الغراف الحالي) • وحاول بعد ذلك خالد بن عبدالله ان يعيد بناء السد في نفس الموضع الا انه لم يلبث ان انهار امام التيار الشديد والمجرى السريع • وقد سمى ابن رسته هذا الموضع « الخيزرانة » وذكر ان آثار السد كانت تشاهد في زمنه اذا قل الماء في دجلة وهو من بناء الاجر والصاروج[٢ب] • اما الان فلم يبق من هذه الاثار اية علائم تعيننا على تعيين موقع القناطر بالضبط عدا تعيين موقع تلول الخيزرانة وقرية الخيزرانة نسبة للقناطر التي كانت في جوارها ، وذلك نظرا للتطورات التي اعتورت هذه المنطقة في خلال مدة تربو على الف وخمسمائة سنة •

وقد وصف لنا قدامة بن جعفر هذا التطور بقوله : «وسبب البطائح المبطحة في ارض السواد ان ماء دجلة كان منصبا الى دجلة المعروفة بالعوراء التي هي اسفل البصرة في مسافة مستقيمة المسالك محفوظة الجوانب فلما كان ملك قباذ فيروز (قباذ الاول ٤٨٨ـ٥٣١م) انبثق في اسفل كسكر بثق عظيم فاغفل امره حتى غلب ماؤه واغرق كثيرا من ارضين عامرة كانت تليه وتقرب منه فلما ولي انوشروان ابنه (كسرى الاول ٥٣١ـ٥٧٩م) امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الارضين

(٢) اطلق اليعقوبي على هذا السد اسم « قناطر الخيزران » (راجع وصف اليعقوبي لنهر دجلة بين المدائن وواسط « كتاب البلدان » طبعة النجف ص ٨٣) •

(٢ب) الصاروج هو النورة واخلاطها من الرماد وغير ذلك (معرب) ويقال صرج الحوض اي بناه بالصاروج •

الى عمارة ، ثم لما كانت سنة ٦ من الهجرة (٦٢٧م)وهي السنة التي بعث فيها النبي (ص) عبدالله بن حذافة السهمي الىكسرى ابرويز (كسرى الثاني ٥٩٠ــ٦٢٨م) زاد الفرات زيادة عظيمة ودجلة ايضا لم ير مثلها وانبثق بثوق كبار فجهد ابرويزان يسكرها ... فلم يقدر للماء على حيلة فورد المسلمون العراق وشغلت الفرس بالحرب فكانتالبثوق تنفجر ولا يلتفت اليها يعجز الدهاقين على سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت » (الخراج ، ص ٢٤٠) .

وهذا نص ماكتبه ابن رسته في وصف التحول والاجراءات المتخذة للحيلولة دون وقوعه : « وكانت البطائح الاولى التي كان يجتمع فيها ماء دجلة قبل تحولها الى ناحية واسط فيما بين المذار وعبدسي فلما تحولت دجلة انقطع الماء عنها وصارت صحارى ومغاوز يصيب المارة في الصيف سموم شديدة ثم ان دجلة هذهالتي هي اليوم سكرت من عند الخيزرانة ليعود الماء الى دجلة وينفذ الىالمذار فيصير الىبقية دجلة العوراء فخرقت وانفق عليها كسرى ابرويز مالا عظيما فاعياه ذلك وجرت دجلة في موضعها الذي هو اليوم بين يدى واسط فصارت البطائح هذه التي تكون اليوم فاعورت دجلة من ذلك الموضع المكسور الى مذار وبطلت تلك البطائح التي كانت بجوخى فبقي من دجلة العوراء من المذار الى بحر الهند وذلك في مقدار ثلاثين فرسخا وهي دجلة البصرة واليه ينتهي مد البحر ومنه يجزر اذا رجع الماء الى البحر . ورام بعد ذلك خالد بن عبدالله ان يسكرها وانفق الاموال فسفت دجلة ذلك البنيان واصله اليوم يرى اذا قل الماء في دجلة بناه من آجر وصاروج وربما لحفت به السفن المارة » (« الاعلاق النفسية » ، ص ٩٤ــ٩٦) . وقد اشار البلاذري الى محاولة خالد بن عبدالله هذه وفشلها بقوله « ان خالد بن عبدالله القسري كتبالى هشام بن عبدالملك (١٠٥ــ١٢٥ هـ /٧٢٣ــ٧٤٢م) يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة فكتب اليه هشام، لو كان هذا ممكنا لسبق اليه الفرس، فراجعه فكتباليه : ان كنتمتيقنا انها تتم فاعملهاواعظم النفقة عليها فلم يلبث ان قطعها الماء فاغرمه هشام ما كان انفق عليها » (« فتوح البلدان » فيفصل « امر واسط العراق ») .

٦ ــ مدينة واسط

شيدت مدينة واسط على طرفي مجرى الغراف بعد تحول مجرى نهر دجلة الى هذه الناحية من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٨٢ هجرية (٧٠٢م) في عهد عبدالملك بن مروان وكان الحجاج قد شيد فيها قصره الشهير المعروفبقصر القبة الخضراء في الجانب الغربي على مسافة نحو سبعة فراسخ من المدينة وسماه بهذا الاسم كناية عن قبته الخضراء . كما أقام فيها مسجدا في الجانب الغربي وقد احاط المدينة بسور عظيم ونقل ابوابا لقصره وللمسجد الجامع من مدن قديمة كانت عامرة في ذلك الزمان ، مثل « الزندورد » و « الدوقرة » و «دير ماسر جيس» و «سرابيط » فضج أهل هذه المدن وقالوا : قد غصبتنا على مدائننا، فلم يلتفت الىقولهم. وانفق الحجاج على بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة واربعين الف الف درهم . فقال له

كاتبه صالح بن عبدالرحمن : هذه نفقة كثيرة، وان احتسبها لك أمير المؤمنين وجد في نفسه قال : فما نصنع ؟ قال : الحروب لها أجمل . فاحتسب منها في الحروب باربعة وثلاثين الف الف درهم . واحتسب في البناء تسعة الاف الف درهم .

وقد اختار الحجاج الموضع الذي شيد فيه مدينة «واسط» لوقوعه في بقعة متوسطة بالنسبة الى البصرة والكوفة والاهواز وليكون عسكره الاموي بمعزل عن أهل الكوفة . وكانت هذه البقعة في السابق محوطة بالاهوار والمستنقعات تنمو فيها الاعشاب والاقصاب ، حتى كان يطلق عليها قبل بنائها « واسط القصب » ، وكانت على كرش من الارض ، أي ترتفع قليلا .

وتبلغ مساحة أطلال مدينة « واسط » الممتدة على ضفتي المجرى القديم الذي كانت دجلة تسير فيه في طورها الثالث ، وهو المجرى المعروف اليوم بشط الدجيلة القديم ، اكثر من ثلاثة كيلومترات مربعة (١٢٠٠ مشارة) ، وتمتاز هذه الاطلال في انها تمثل عدة ادوار من ادوار العهد العربي لمدة حوالي الف عام ، كما انها تمتاز في كونها آثار عربية اسلامية بحتة .

وقد عنيت مديرية الاثار القديمة العامة بالتنقيب في أطلال « واسط » فحفرت فيها ستة مواسم ، امتدت بين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٢ . وقد نشرت تقريرا قيما بالانكليزية عن اعمال الموسم السادس ، كتبه الاستاذ السيد فؤاد سفر وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٥ ، . ودلت هذه التنقيبات على الكشف عن اربعة جوامع في نفس المنطقة التي انشيء فيها جامع الحجاج ، اي على الضفة الغربية من شط الدجيلة ، يرجع كل منها الى دور خاص من الادوار العربية ، وقد كشفت دائرة الاثار من بين الجوامع الاربعة هذه عن جامع الحجاج وازاحت عنه الاتربة وبقايا اطلال الجوامع الاخرى التي انشئت في الادوار التي تلي دوره . وجامع الحجاج كما يتضح من المخطط الذي رسمته دائرة الاثار (انظر مخطط جامع الحجاج) مربع الشكل كل جانب منه ٢٠٠ ذراع في داخله اساطين من الحجر الرملي (Sand Stone) جميلة الصنع والنقوش ، وهو يتألف من خمس بلاطات في مصلاه وبلاطة في كل من جانبيه وفي مؤخره ، وفي وسطه صحن واسع مبلط بالآجر المنتظم فيه ميضأة واسعة يأتيها الماء في انابيب الفخار ويصرف عنها بأنابيب اخرى .

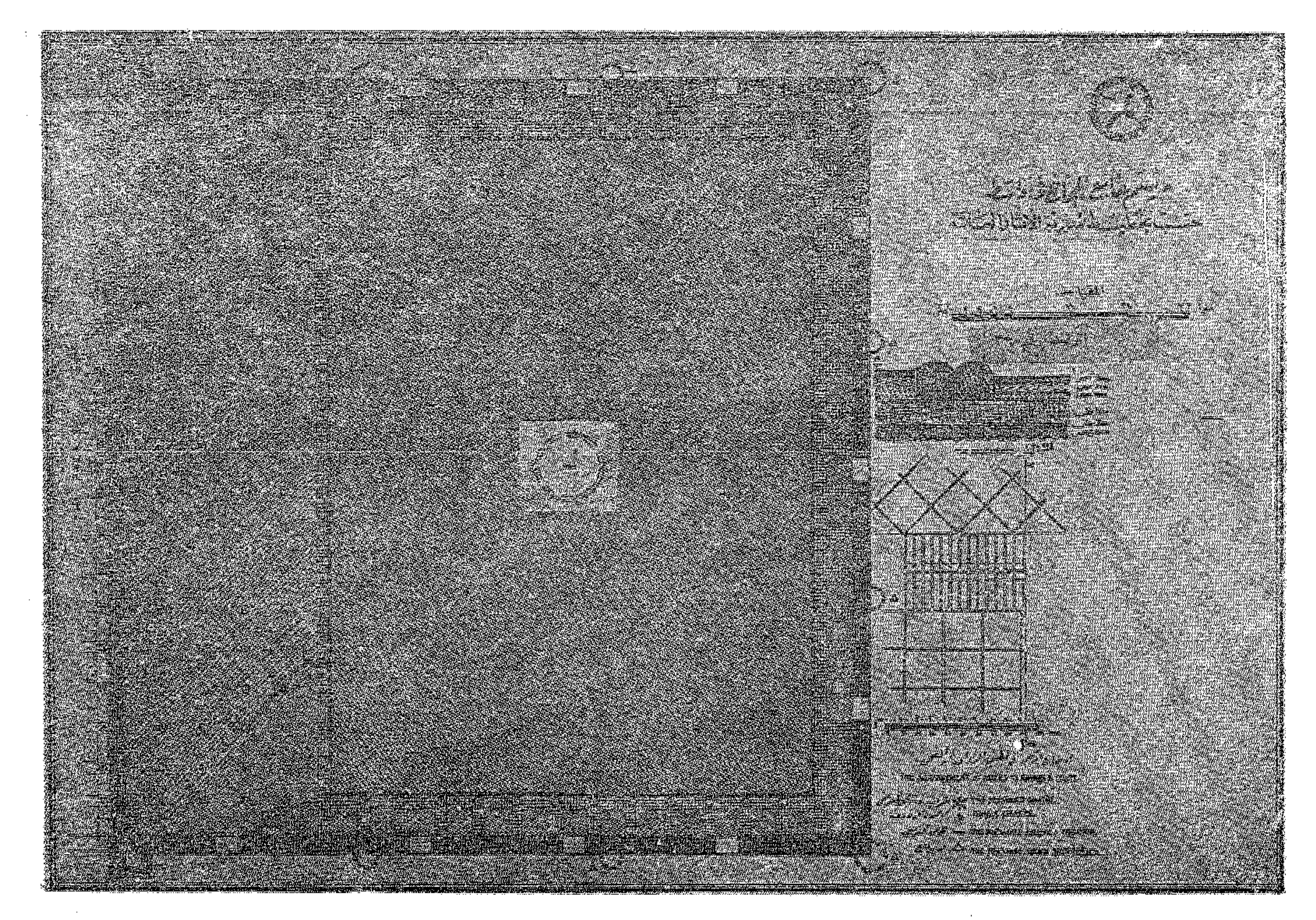
وقد انشئت الاعمدة الحجرية من قطع مستديرة ركبت الواحدة فوق الاخرى وفي كل من هذه القطع ثقب من وسطها وضع من الحديد ليربط القطع بعضها ببعض ، وقد ثبت القضيب بالرصاص ونقشت الاوجه الخارجية للدعامات بنقوش جميلة مختلفة . وقد اثير البحث عن الاحجار الرملية وعن الموضع الذي جلبت منه ، فبين الاستاذ فؤاد سفر في بحثه عن « واسط » (الطبعة الانكليزية ص ٢٤) ان اقرب موضع توجد فيه هذه الاحجار هو « جبال بشتكو » الواقعة على ثمانين ميلا من شرق « واسط » ، الا اننا نرى ان الاحجار الرملية هذه موجودة بوفرة في جبل حمرين على نهر ديالى، والارجح انها نقلت الى « واسط » بالسفن بطريق ديالى والنهروان (نهر تامراء) ودجلة ، وهو طريق الملاحة الذي كان يستعمل في ذلك الزمن ، اذ لا يمكن ان

تكون هـذه الأحجار الثقيلة قـد نقلت بغـير الواسطة النهرية ، ولمـا كـان نهـر دجلة يجري فـي جهـة واسط فـي عهد الحجـاج وان مجرى العمـارة كـان قـد جـف فـي ذلك الوقت فالطريـق الملاحي الوحيد الـذي كان يمكن ان يسلك في مثل هذه الظروف هو طريق ديالى والنهروان ودجلة كما تقدم ، ومما يجدر ذكـره في هـذا الصدد ان الحكومة العراقيـة تنقل الان كميات كبيرة من هذه الاحجار الرملية من جبل حمرين قرب ديالى لاستعماله في انشاء المسنيات على ساحل دجلة في مدينة بغداد (انظر المرتسمين المرقمين ٣٦ و ٣٧) .

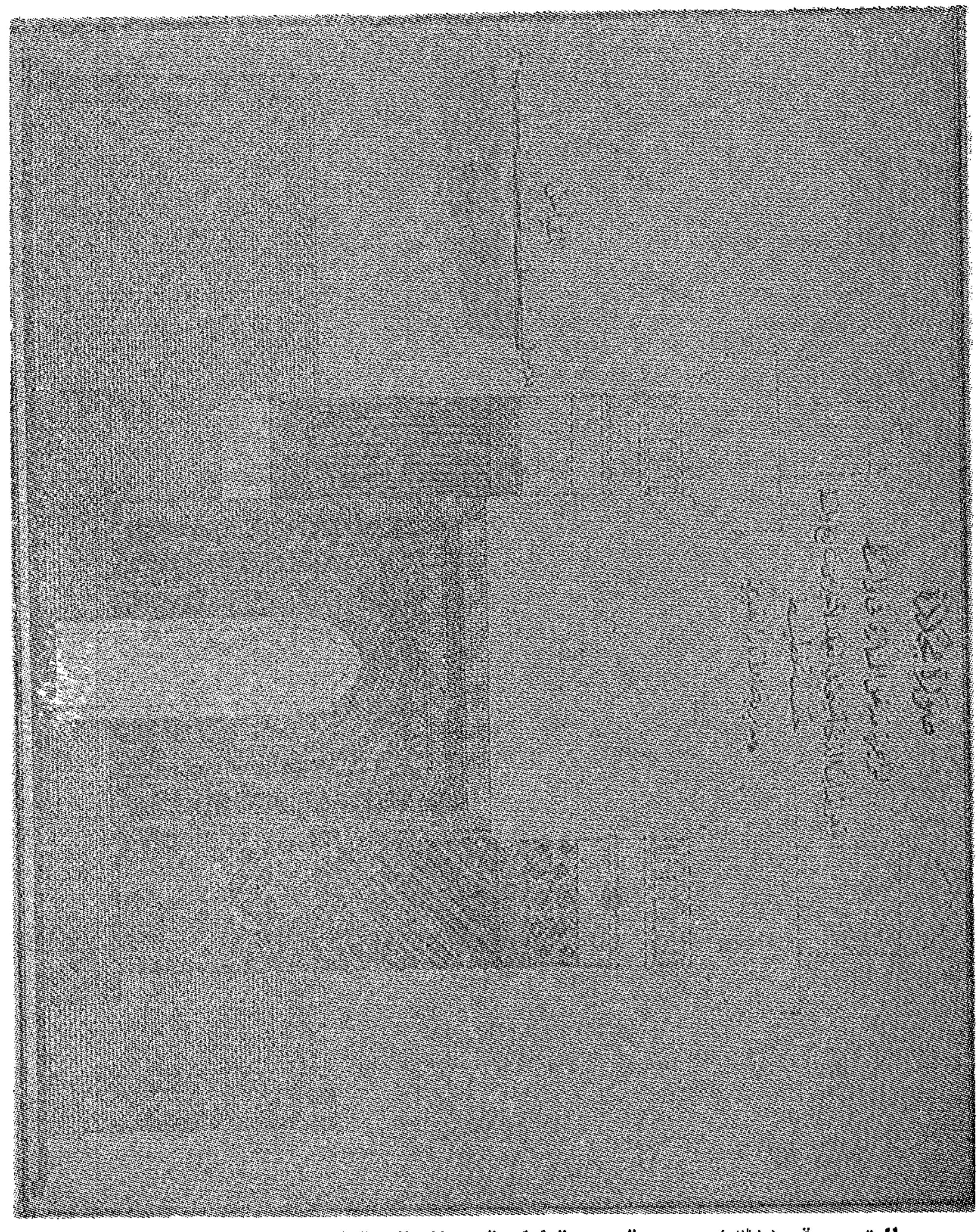
ومن اهم مايشاهده الزائر اليوم بين اطلال « واسط » بقايا الباب الاثرية الواقع على الطرف الشمالي الشرقي من تلك الاطلال على نحو ١٥٠ مترا من الضفة الشرقية لشط الدجيلة (مجـرى دجلة القديم) ، وكان على جانبي هذا الباب منارتـان (راجـع صـورة البـاب والمنارتـين) ، ويشاهد التفنن في تجميل ذلك الباب والمنارتين باستخدام الآجر المحفور المنقوش بشتى النقوش الهندسية . وكان قد اطلق الاهلون على خرائب « واسط » اسم « قبة المنارة » او « المنارة » لبروز هاتين المنارتين بين الاطلال ، ولا تـزال تعـرف اطـلال « واسط » بالمنارة حتـى يومنا هذا . وقد كشفت مديرية الآثار العامة داخـل بناية هذا الباب عن مرقد واسع مثمن الشـكل لا زالت اركانه شاخصة ، في داخله ضريح غفل من الكتابة كانت فوقه قبة من بناء الآجر ، الا انه يظن بناء على ما جاء ذكره في معجم البلدان بانه ضريح محمد بن ابراهيم بن الحسن بن علي أبن ابي طالب عليهم السلام . فقد ذكر ياقوت قبة هذا الضريح في مادة الحزامين بقوله : « الحزامون محلة في شرقي واسط واسعة كبيرة لها ذكر فـيالتواريخ كثير كأنها منسوبة الى الذين يحزمون الامتعة اي يشدونها والله اعلم ... وبالحزامين مشهد عليه قبة عالية يزعمون ان بها قبر محمد ابن ابراهيم بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم وهناك قبر عزرا بن هارون بن عمران يزوره المسلمون واليهود » . وجـاء ذكر قريـة باسم « الحوز » متصلة بالحزامين في كتاب المراصد لابن عبدالحق فوصفها بقوله انها « قرية من شرقـي مدينة واسط قبالتها متصلة بالحزامين فهي كالمحلة منها ويقال لها حوز برقـة » .

وقد دلت نتائج التنقيبات ان بناية الباب تعود الى الادوار الاولى من تاريخ « واسط » ، ثم اعيد بناؤها ثلاث مرات ، وعلى هذا فان بناء الباب الشاخص يعود الى الدور الاخير ، ويعتقد انه انشيء في حوالي القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد عثر على عدة قبور ملحقة بهذه البناية فيهـا الاحجار المنحوتة الدالـة على تواريخها وهـي تمتد بين سـنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) و ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

وجاء في « مختصر مناقب بغداد » لابـن الجوزي ان المنصور لما انشأ مدينته المدورة في بغداد نقل اليها من واسط ابوابا حديدية ركبها في المنافذ الاربعة التي انشأها الحجاج في سـور تلك المدينة وهذه هي ابواب الحجاج التي يقـال ان الحجـاج كـان قد نقلهـا الـى واسط من مدينة بناها سليمان بن داود .



المرتسم رقم (٣٦) – مرتسم جامع الحجاج في واسط حسب تخطيط مديرية الآثار العامة



المرتسم رقم (٣٧) ـ صورة مجددة لواجهة مدخل المنارة في واسـط وهو الباب الذي انشيء في العهد الاخير من تاريخ واسط حسب تخطيط مديرية الاثار القديمة .

وقد بقيت مدينة « واسط » في زمن خلفاء بني العباس من المدن الشهيرة ، وفي القرن السابع الهجري اهمل شأن الجانب الشرقي من المدينة فانتقل الناس الى الجانب الغربي ، وبقيت المدينة محافظة على مقامها حتى القرن الثامن الهجري وبعد هذا التاريخ قل شأنها وخفت ذكرها بسبب قلة المياه في المجرى الذي تقع عليه حيث اخذ مجرى نهر دجلة بعد ذلك يتهيأ للرجوع الى عقيقه القديم في الجهة الشرقية اي الى جهة فرع العمارة . وقد وصف المؤرخون مدينة « واسط » في بداية القرن السابع عشر الميلادي فذكروا انها تقع في وسط الصحراء ، ذلك مما يدل على ان المياه انقطعت عن المجرى الذي يسير في اتجاه واسط في ذلك الوقت واتجهت نحو الفرع الشرقي من دجلة في جهة « دجلة العوراء » وقد بقيت على هذه الحال حتى يومنا هذا . (٢ ج) .

لقد حصلت مساجلة في تحقيق موضع « واسط » بين المحقق الدكتور مصطفى جواد من جهة وبين دائرة الآثار العراقية من جهة اخرى،فكانت مطالعة الدكتور مصطفى جواد انه ليس هنالك ما يثبت ان موضع « خرائب المنارة » او « قبة المنارة » هو واسط الحقيقية ، ويروى انه من المحتمل ان يكون موضع «خرائب المنارة» من بقايا « قرية عبدالله » التي ذكرها ابن عبدالحق في المراصد بقوله انها «مدينة ذات اسواق وجامع كبير وعمارة ، تحت واسط ، بينها نحو خمسة فراسخ ... » . او من بقايا « بلدة المأمن » التي اشار اليها ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٨٠ هـ بقوله ان موضعها في « نهر جعفر » وهي من اعمال « واسط » بنيت في زمن هولاكو وفيها ديوان وجامع وخان وحمام وسوق . وعلى هذا يرى احتمال كون الباب الاثري الذي تقدم ذكره من بقايا « مدرسة قتلغ شاه التي انشئت في بلدة « المأمن » وهي المدرسة التي ذكرها ابن الفوطي ايضا . وقد اجاب الاستاذ فؤاد سفر الذي نقب في اطلال واسط خلال الموسم السادس (سنة ١٩٤٢) على هذه المطالعات ، ومن جملة ادلته على عدم امكان الاخذ برأي الدكتور مصطفى جواد : ١ ـ ان «خرائب المنارة» تشتمل على آثار ومبان تعود الى القرون الستة التي سبقت هولاكو ؛ ٢ ـ ان هذه الخرائب تنتشر لمسافة ثلاثة كيلومترات على طرفي « الدجيلة » (مجرى دجلة القديم) وليس في تلك البقاع خرائب من العصور الاسلامية تبلغ مساحتها وعلو انقاضها حتى نصف مساحة او علو « خرائب المنارة » ؛ ٣ ـ اتفقت المراجع على ان واسطا ذات شطرين يفصل بينهما نهر دجلة ، وهذا يتفق وخرائب «المنارة» التي على شاطيء الدجيلة . وجاء في المراجع القديمة ان المسجد الجامع في واسط كان في الشطر الغربي منها بعيدا عن الشط وقد تحقق هذا من كون ان في الشطر الغربي لخرائب المنارة بعيدا عن عقيق الدجيلة خرائب مسجد جامع بعض اساطينه من الحجر ؛ ٤ ـ تقع على الدجيلة اطلال « سابس » المدينة التي اجمع جغرافيو العرب على انها كانت على نهر دجلة ؛ ٥ ـ على امتداد الدجيلة اطلال الرصافة، المدينة التي اتفقت المراجع العربية على وقوعها على نهر دجلة ؛ ٦ ـ

(٢ج) انظر : الدكتور احمد سوسة «ري سامراء» ج٢ ، ص ٤٣١ ـ ٤٤٤ .

وجدت آثار مكتوبة تدل على ان «خرائب المنارة» هي موضع « واسط » ، ولم توجد آثار مكتوبة تدل على انها غير « واسط » • اما نحن فنرى ان الدكتور مصطفى جواد لم يكن موفقا فيما ذهب اليه وان الرأي القائل بان خرائب المنارة هي « واسط » الحقيقيـة امر لا يقبل الشـك ، وقـد اهتدينا الى هذا الراي بعد دراسة دقيقة لجغرافية انهر « واسط » وتتبع آثار الانهر القديمة في تلك المنطقة وتعيين مواضع المدن والقرى التي لا تزال تحتفظ باسمائها الاصلية • ويكفي المـرء ان يتفقد القطع الحجرية المنتزعة من اساطين الجامع التي اكتشفتها دائرة الآثار في موضع « خرائب المنارة » الواقعة على الضفة الغربية من الدجيلة لحصول القناعة التامة من ان تلك الخرائب هي من بقايا واسط ، لان وزن كل قطعة من هـذه القطع الحجرية تبلغ حوالي الطن الواحد ولا يمكن ان تكون قد نقلت هذه الاحجار من محاجرها في المناطق الجبلية الى موضع « المنارة » لانشاء قرية اعتيادية كقرية « عبدالله » او قرية « المأمن » • وفضلا عن ذلك ان الراي القائل باحتمال كـون « خرائب المنارة » من بقايا قرية « المأمن » او قرية « عبدالله » كما ذكر الدكتور مصطفى جواد لا يمكن الاخذ به ، لان المؤرخين ثبتوا موضع قرية « المأمن » على نهر جعفر في اسفل «واسط» في الطريق الذي بين البصرة وواسط ، وقد وصف نهر جعفر انه احد ذنائب دجلة ، وكـل هذا لا ينطبق على ما نعلمه عن موضع واسط ، واذا فرضنا ان «خرائب المنارة» هي «قرية عبدالله» التي ثبت موضعها في جنوب واسط على خمسة فراسخ منها ، فذلك يحتم علينا ان تتحرى عن موضع واسط في شمال « المنارة » ، في حين انه لم يكن لهـا اي اثر هناك • هـذا واننا لنعتقد ان بحثنا عن جغرافية انهر واسط وقرى منطقة واسط فيه من الادلة الكافية على ان « خرائب المنارة » هي مدينة واسط الحقيقية ، وان الموضوع لا يدع للشك او التردد في هذا السبيل •

وكان على الضفة اليسرى للمجرى الجديد في اطراف واسط قرى عديدة كقرية فم الصلح الواقعة شمال مدينة واسط والرصافة وقرية نهر بين والفاروث وديـر العمال والحوانيت والقطر الواقعة جنوبها ، وكذلك كان على الضفة اليمنى عدة قـرى اهمها قريتا قريش والجوامد تقعان جنوب واسط • ولم يبق من آثار هذه القـرى شيء على طرف شط الغراف الحالي •

٧ ــ منطقة البطائح وجداولها

ويعلق المؤرخون أهمية عظمى على فيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ المار الذكر ، ذلك انه خرب معظم مشاريع الري القائمة في آخـر عهد الساسانيين وأدى الى تحول الأنهر من مجاريها وهدم السدود وسبب تكوين الاهوار والبطائح •

ولقد كتب أكثر المؤرخين العرب عن البطائح فاطنبوا في وصفها وبيان أسـباب تكونهـا وكيفية استصلاح بعض أراضيها للاستفادة منها في الاغراض الزراعية • فمـن جملـة ما ذكره البلاذري في وصف البطائح قال : «لما كانت السنة التي بعث فيها رسول الله (صلعم) عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ابرويز وهي سنة سبع من الهجرة ، ويقال سنة ست ، زاد الفرات ودجلة

زيادة عظيمة لم ير مثلها قبلها ولا بعدها ، وانبثقت بثوق عظام فجهد ابرويز ان يسكرها فغلبه المـاء ومـال الى موضع البطائح فطغا على العمارات والزروع فغرق عدة طساسيج كانت هناك .. ثـم دخلت العـرب أرض العراق وشغلت الاعاجم بالحروب فكانت البثوق تتفجر فلا يلتفت اليهـا ويعجز الدهاقين عن سد معظمها فاتسعت البطيحة وعرضت، فلما ولي معاوية بن ابي سفيان ولى عبدالله ابن مولاه دراج مولاه خراج العراق واستخرج له من الارضين بالبطائح مابلغت غلته خمسة آلاف ألف وذلك انه قطع القصب وغلب الماء «بالمسنيات » ثم استطرد قائلا «وحدثني أبو مسعود الكوفي عن اشياخه، قالوا حدثت البطائح بعد مهاجرة النبي (صلعم) وملك الفرس ابرويز، وذلك انه انبثقت بثوق عظام عجز كسرى عن سدها وفاضت الانهار حتى حدثت البطائح ، ثم كان مد في ايام محاربة المسلمين الاعاجم بثوق لم يعن احد بسـدها فاتسعت البطيحة لذلك وعظمت، وقد كان بنو امية استخرجوا بعض أرضيها فلما كان زمن الحجاج غرق ذلك لان بثوقا انفجرت فلم يعـان الحجاج سدها مضارة للدهاقين لانه كان اتهمهم بممالأة ابن الاشعث حين خرج عليه واستخرج حسان النبطي لهشام ارضين من اراضي البطيحة ايضا » .

وقد ايد المسعودي حدوث هذا الفيضان العظيم ، فقال ان زيادة عظيمة حدثت في السنة السابعة للهجرة في نهري الفرات ودجلة تكسرت من جرائهـا السـدود والمسـنيات والسـكور والشاذورانات وتسربت المياه الى المنخفضات ، وقد حاول كسـرى ابرويـز ان يعيد منشئات الـري والسدود الا أنه لم يستطع تحقيق ذلك ، وقد عقب ذلك اهمال بسبب انشغال الفرس بمحاربة العرب ، الامر الذي أدى الى اتساع البطائح اتساعا عظيما بحيث ان خراج العراق بلغ في زمن معاوية خمسة عشر مليون درهم من القصب النبات في هذه البطائح. ومما ذكره المسعودي أيضا ان اكثر ماء الفرات «كان ينتهي الى بلاد الحيرة ثم يجتازها ويصب في الخليج العربي وكان البحر يومذاك في الموضع المعروف في النجف في هذا الوقت وكانت مواكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه » .

وصف ابن رستة منطقة البطائح كما شاهدها في زمنه فقال انها منطقـة واسعـة تؤلـف سلسلة بحيرات ومستنقعات يبلغ عرضها ما يساوي المائة ميل بقدر ماتمتد طولا وكانت تكتنف هذه الاهوار القرى والقصبات فيكثر فيهـا البردي والقصب ، وكانت الاهوار متصلة بعضها ببعض بترع صالحة للملاحة فكانت السفن تأتي بحمولتها فتفرغها في سفن أصغر منها لقطع الاهوار والترع المؤدية الى شط العرب[٣] .

وقد افاد ابن رستة أيضا بأن نهر دجلة تحول في نفس الوقت من مجراه الشرقي في اتجاه العمارة الى جهة شط الغراف وذلك أدى الى اضمحلال الاراضي الواقعة على حدود المجرى الشرقي . اما مساحة البطائح فقد اختلف المؤرخون في تحديدها، فالمسعودي مثلا يقدر أبعادها بخمسين فرسـخا في الطول ومثلها في العرض (حوالي ١٥ ميـلا انكليزيا) في حين ان ابن رستة يقدرها بثلاثين

(٣) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٤ — ٩٦ .

فرسخا في الطول وعرضها مثل ذلك (٩٠ ميلا) • وعلى كل فأن مساحة البطيحة كانت تتغير من سنة الى أخرى لانها كانت تتوقف على مقادير الفيضانات وعلى مساحة الاراضي المستصلحة من الاهوار •

ومع ان منطقة البطائح كانت موبؤة بالملاريا فأن القسم الجاف منها كان يستغل في الزراعة وكان أهل الاهوار يصطادون السمك بكثرة وهو يؤلف مادة معيشتهم الرئيسة فكانوا يملحونه ويجففونه ويصدرونه الى خارج منطقتهم •

يتضح مما تقدم ان البلاد فقدت الكثير من الاراضي الجنوبية الزراعية الخصبة نتيجة انتشار الاهوار (البطائح) في تلك المناطق الا ان الزراع قد مارسوا زراعة الرز في منطقة الاهوار حيث وجدوا في منطقة البطائح بقعة ملائمة لزراعته • وقد ذكر ابن سرابيون اربعة من اهوار البطائح أهمها هور المحمدية الواقع في الحد الجنوبي الشرقي من منطقة البطائح، وعلى هذا الهور كانت تقع منارة حسان النبطي صاحب حوض حسان في البصرة، وقد ذكر البلاذري ان الحجاج استخدم حسان المذكور لبزل المياه من بعض الاهوار واعمار القسم من أراضيها •

ويؤخذ من الروايات التأريخية أنه كان نهر يتكون من منتهى منطقة البطائح في الجنوب ويسمى نهر ابي الاسد ، فيسير هذا النهر في اتجاه مجرى الفرات الذي يتصل بدجلة في جوار القرنة ، وكان قد سمي بأسم ابي الاسد كناية عن احد قواد المنصور المسمى ابو الاسد والذي يقال انه قام بحفر النهر ووسعه لتسهيل سير السفن فيه • ويلاحظ ان هذا النهر هو نفس المجرى الذي يصل سوق الشيوخ بالقرنة والذي قام البريطانيون في توسيعه في الحرب العالمية الاولى لتأمين سير البواخر فيه فسموه نهر الحفار • وكان يسمى هذا النهر في قسمه الاخير في زمن العرب بـ « نهر المذار » •

وكان هناك جدولان رئيسيان يتفرعان من الضفة اليمنى لنهر دجلة العورة (شط العرب) هما نهر معقل الواقع في الشمال ونهر الابلة في الجنوب فيجريان بصورة موازية في اتجاه الغرب الى مسافة اثنى عشر ميلا تقريبا ثم يجتمعان عند مدينة البصرة ، وبذلك فقد احاط هذان الجدولان بقطعة من الارض يحدها نهر معقل من الشمال ونهر الابلة من الجنوب ودجلة العورة من الشرق ، وكان على الحد الجنوبي الشرقي من هذه الجزيرة ميناء الابلة الذي اشتهر في زمن العرب لأهمية موقعه حيث كان يقع على دجلة العورة في جوار صدر نهر الابلة ومن ذلك المكان يتم الاتصال النهري بمدينة البصرة الواقعة في طرف الصحراء •

٨ ـ مدينة البصرة وانهارها

مدينة البصرة كمدينة الكوفة شيدت في عهد عمر بن الخطاب في نفس السنة التي شيدت فيها مدينة الكوفة ، فبناها العرب بعيدة عن شط العرب وعلى طرف البادية لكيلا يكون ماء بينها وبين عاصمة الدولة العربية ، وقد جعلت معسكرا للجيش ، ونظرا لمركزها التجاري المهم امتد اليها

العمران وتوسعت مبانيها . وقد عمرت مدينـة البصرة في أيام بني امية الذين اتخذوها مقـرا لامارتهم في عهد حكمهم واتسعت مساحتها حتى بلغت في امارة خالد بن عبدالله (القسري) فرسخين في فرسخين ، اي حوالي ٣٦ ميلا مربعا في أرض منبسطة ، ثم زادت ثروتها في زمن العباسيين حيث أصبحت في عهدهم محوراً لتجارة العراق مع بلاد الشرق كالهند والصين والحبشة وغيرها من البلاد المجاورة . وقد اعتبر المؤرخون مدينة البصرة جزءاً من المنطقـة التي تضـم المغارس التي تمتد الى عبادان . ومما ذكره في هذا الصدد ابن حوقل والاصطخري قالا : « ولهـا نخيل متصـلة مـن عبدسي الى عبادان نيفا وخمسين فرسخا متصلة لا يكون الانسان منها بمكـان الا وهو في نهـر ونخيل او يكون بحيث يراها » . ولازالت اطلال المدينة يمكن مشاهدتها بالقرب من قرية الزبير الحالية ، وكان للبلدة سور يحيط بها له باب من جهة البادية يسمى باب البادية . اما مدينة البصرة الحالية فلعلها انشئت في نفس الموقع الذي كان فيه ميناء الابلة .

وقد وصف ابن حوقل نهر الابلة فقال « انه من مشاهير انهار البصرة وطوله اربعـة فراسـخ مابين البصرة والابلة وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدت على خيط ورصفت بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والابنية الفاخـرة والعروش العجيبة والاشـجار المثمرة والفواكه اللذيذة والرياحين والفضة ... ويتشعب فوق البصرة ومن تحتها أنهـار كثيرة فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر ولا يدانيه في الجمال وحسن المنظر الانيق وكأن نخيلها غرست ليـوم واحـد » .

وكان هنالك عدا نهري الابلة والمعقل عدة أنهر اخرى مهمة تتفرع من الضفة الغربية لنهر دجلة العورة (شط العرب) كانت ثلاثة منها فوق نهر معقل وهي نهر المـرأة ونهر الدير ونهر شيرين واربعة تحت نهر الابلة وهي نهر اليهود ونهر أبي الخصيب ونهر الامير ونهر قندل ، وأشهر هذه الانهر نهر أبي الخصيب وقد سمي بأبي الخصيب لان المنصور كان قد منح الاراضي الواقعة على هذا النهر الى احد رجاله المدعو أبو الخصيب مرزوك ، وعلى هذا النهر شيدت قلعة المختارة الحصينة التي تحصن فيها عصاة الزنج . وقد بالغ بعض المؤرخين في احصائهم لعدد أنهر البصرة في ذلك العهد فكتب ابن حوقل في وصفها قال : « وذكر بعض المؤرخين من أصحاب الاخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال ابن ابي بردة فزادت علـى مائة الف وعشرين الف نهر تجري في اكثرها الزواريق وكنـت انكر ماذكره من هذا العدد في ايام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع .. فجوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها ولم استكثره » .

٩ - الري في العصر العباسي

استولى العرب على العراق فوجدوا تنظيمات الري التي كان قد أسسها الساسانيون فيه من قبلهم قد أصابها الشلل والانحطاط ، وذلك لحدوث الفيضان الكبير سنة ٦٢٧/٦٢٨ م من جهة وظروف الحرب بين العرب والفرس قبيل الفتح الاسلامي من الجهة الثانية ، تلك الظروف التي

عرقلت استمرار المجهود الزراعي في البلاد بنتيجة اهمال صيانة منشآت الري وتطهير الأنهر والجداول ، ولكن ما كاد يستتب الأمن ويستقر الحكم للعرب حتى أخذوا يبذلون كل الجهود الممكنة للحفاظ على مشاريع الري التي عمرهاالساسانيون من قبلهم وصيانتها ، ثم زادوا عليها تحسينات وتوسيعات كما شقوا جداول جديدة وأقاموا على ضفافها المدن والقرى علاوة على اقامة السدود لدرء غوائل الفيضان • وقد بلغ ري العراق في زمن العباسيين وبخاصة في زمن الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون ذروةتقدمه وازدهاره فكان مصدر رخاء ورفاه شملا المملكة بأسرها ، اذ وسعت الزراعة باستصلاح قسم كبير من الاراضي المغمورة وشقت ترع كبيرة بحيث استغل اكثر مافي نهري دجلة والفرات من المياه ، واسس نظام ري واسع يستند على اساليب علمية كما يتضح من تاريخ بني العباس الحافل بجسام الاعمال التيتمت على يدهم، وما تنسيق مدينة بغداد في العهد العباسي وتنظيم شبكة الجداول التي كانتتخترقها الا مظهر من مظاهر تقدم العرب في فن الري • وكانت مشاريع الري فيارض السواد تؤلف شبكة من الجداول والقنوات على طول نهري الفرات ودجلة •

ومما يلفت النظر ان الفتح الاسلامي لم يتعرض للانظمة المعمول بها في البلاد فيما يتعلق بالحياة الزراعية بل حافظ الفاتحون العرب على ماكان عليه الحال في زمن الفرس ، وهناك مايشير الى انهم منعوا تملك الاراضي من قبل رجال الجيش ، ولعل الدافع الذي حملهم على ذلك هو الرغبة في استمرار الحياة الزراعية على حالتها الطبيعية ، ثم ابعاد افراد الجيش الفاتحين عن ارتباطهم بالاراضي الزراعية فيهملون واجباتهم •

وقد اعترف الخبراء والمؤرخون بعظمة اعمالبني العباس ومشاريعهم الجبارة فصرح سير ويليام ويلكوكس في كتاباته عن ري العراق القديم قائلا : « ان اعمال الخلفاء في ري العراق فيالايام الماضية تشبه اعمال الري في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا العصر » ، ومضى يقول : « ان العراق ليس بحاجة الى تخطيط جديد لشق الترع وفتح الجداول فان في الاثار الباقية من الدور العباسي كفاية لتنظيم الزراعة والري في العراق ••• ومما هو جدير بالملاحظة ان مشروع الاعمار الذي قام به العرب في الدلتا كان نسخة طبق الاصل لما قام به مردوخ • فحينما كانت الكوفة وواسط والبصرةعواصم العالم قبل ظهور بغداد قام الحجاج امير البصرة الحازم باعمار نحو خمسين الف ايكر منالاهوار بين القرنة والبصرة وحولها الى احدى جنات العرب الارضية الاربع فكانت الاراضي عبارة عن بساط اخضر من البرسيم الحجازي تبرز منها اشجار النخيل الباسقة فتظل الحدائق وتقيها من حرارة الصيف اللافح وبرد الشتاء القارس ، بينما كانت نفائس الكروم تصل نخلة باخرى وتتدلى منها عناقيد العنب الارجواني »(٤) •

---

(٤) تقريره عن ري العراق ، ص ١١ – ١٢ •

وقد تطرق الاستاذ محمد كرد علي الى هذا الموضـــوع ذاته في كتابه « تاريخ الحضــــارة الاسلامية » فقال « انه مضى دهر طويل كانت فيه شـعوب المملكـة اول العارفين بالزراعة ، واحسن العمال وأجرأ التجار في العالم القديم ، واصبحت الزراعة التي اتخذوها عن اساليب بابل والشام ومصر علما حقيقيا للعرب ، اخذوا نظرياتها من الكتب ، ثم وسعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ليس بعدها مهارة ، وكان رجال الطبقة الاولى منهم لا يتنكرون عن العمل بايديهم في زراعة الارض ، بينما كان غيرهم يحتقرهــا ويعدها عملا مهينا » .

ومما قاله المؤرخ الفرنسي شارل سنيوبوس في كتابه « تاريخ الحضارة » في هــذا الصـــدد « ان امراء العرب جروا على قاعدة اسقاء الاراضي بفتح الترع فحفروا الابار وجازوا بالمال الكثـير من عثر على ينابيع جديدة ، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ونقلوا الى اسبانيا اسلوب النواعير والسواقي التي توزعها وان سهل بلنسية الذي جاء كأنه حديقة واحدة هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقي ونظم العرب ديوان المياه الذي يرجع اليه في مسائل الري » .

وتدلنا الاثار على ان معظم ميـــاه الرافدين قد استغلت في زمن العرب في اغراض الري حيث تمكن العرب من استثمار كل الدلتا تقريبا :فهناك عــدة جــداول كانت تاخــذ من ضــفة الفرات اليسرى لتروي اراضــي مابين النهرين الواقعة بين الفلوجة والناصرية كجداول عيســى وصرصر والملك وكوثى ، كما انه كانت هنــاك جداول اخرى تأخذ من الضفة اليمنى لنهر دجلة كجدول الاسحاقي وجداول دجيل لارواء الاراضي الواقعة شمال بغداد.وقد قام العرب عدا ذلك باستثمار اراضي دجلة الشرقية على طول جدول النهروان والاراضي في منطقة واسط ، كما انهم قاموا ايضا باعمار قسم كبير من الاراضي المستنقعة الممتدة بين القرنة والبصرة . وفي وصف المؤرخين لعمران المملكة العباسية مايشير الى ان القرى الواقعة على نهر دجلــة كانت في العهــد العباسي متجاورة لدرجة ان الديوك كانت تتجــاوب باصواتها من سطح دار الى آخــر على طول الطريق بين بغداد والبصرة . ومما ذكره البعض الاخر ان الترع قد تشابكت في السواد مابين دجلة والفرات بحيث اصبحت تشكل سورا مشتبكا غير مميز تخترقه انهار من الفرات وقس على ذلك سائر انحاء الدلتا العراقية .

وقد نالت ارض السواد حظا وافرا من العناية في عهد العباسيين حيث كانت السلطة الحكوميــة تراقب جميع الامور المختصة بالري والزراعة مراقبة دقيقة وتشرف على العناية بالجداول وصيانتها واصلاحها وعلى جميع اعمال الري التي يعتمد عليها الانتاج الزراعي . فكان هناك ديوان خاص يسمى « ديوان الاقرحة » تنحصر مهمته بالاشراف على اعمال الري والجداول . فوجه ابو يوســف قاضي قضاة الدولة العباسية كتابا الى الخليفــة هارون الرشيد مفــاده ان من واجب الحكومة ان تتولى انشاء الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة ، كما ان عليها ان تتولى تطهير الجداول القائمة واصلاحها والمساهمة مع الشعب في تحمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه . ثم يوصي بتشكيل

شرطة نهرية ذات كفاية والعمل على ازالة العقبات التي تعرقل الملاحة في الانهر وبخاصة في دجلة والفرات •

١٠ ــ نصب مقاييس على نهر دجلة والفرات وديالى

ومما يدل على اهتمام العرب بالقضايا الفنية التي تتعلق بمياه الانهر (الهايدرولوجيا) انهم اقاموا على نهر دجلة في مدينة بغداد مقياسا لتسجيل ارتفاع مستوى المياه في مختلف المواسم وبخاصة في موسم الفيضان ، حيث اصبحت الحاجة شديدة بعد قيام مدينة بغداد وتوسعها على جانبي النهر لمراقبة حركات الانهر وتسجيل مستواها خاصة في موسم الفيضان حين تفيض الانهر وتهدد المدينة من الجانبين بالغرق • ويستدل مما كتبه المؤرخون على ان هناك مقياسا نصب على ضفتي نهر دجلة في بغداد ، وقد وصل الينا من المصادر القديمة التي سلمت من الضياع والفقدان عدة تسجيلات لمستوى مياه النهر على هذا المقياس • وقد اقتصرت على تسجيل حوادث بعض الفيضانات الخطرة فقط وعلى تسجيل الحد الاعظم الذي بلغه مستوى الماء في كل من هذه الفيضانات مع بيان سنة حدوثه وفي اكثر الحالات تسجيل اليوم والشهر • فقد ورد ذكر لنصب هذا المقياس فيما كتبه ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » حوادث سنة ٢٩٣ هـ ــ ٩٠٥/٩٠٦ م قال : « ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعا وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها بحديدة علامة لاذرع تعرف بها مبالغ الزيادات »[٥] • ويلاحظ انه لم يذكر هنا الموقع الذي انشىء فيه المقياس ، ولكن الاشارة اليه بمناسبة ذكر حوادث الفيضان وغرق بغداد يدل على وجه التاكيد على انه كان في مدينة بغداد • وقد نصب مقياسان ، احدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي لمراقبة ارتفاع مياه الفيضان في احد الجانبين عند تعذر الاتصال بينهما في حالات الفيضان العالية • ولاتوجد لدينا معلومات عن المدلول الذي استند اليه في نصب هذا المقياس بالنسبة الى مستوى سطح البحر ، الا انه يرجح ان اسفل المقياس كان قد ثبت في قعر النهر او في اوطأ مستوى للمياه في زمن شح المياه ، وكان ارتفاعه خمسا وعشرين ذراعا كما تقدم ، اي ما يساوي نحو اثنى عشر مترا ونصف المتر[٦] •

---

(٥) ج٦ : ٧٥ •

(٦) اختلف المحققون في تقدير طول الذراع العربي بالنسبة للزمن والبلد الذي استعمل فيه ، فقد حقق العلامة الايطالي نللينو طوله بدقة كما كان مستعملا في بغداد في العهد العباسي وتوصل الى انه يساوي ٤٩٣ر٣ مليمترا ، اي حوالي خمسين سنتمتر او نصف المتر (« علم الفلك عند العرب » ، ص ٢٨٩) • ويرى البعض الاخر كما ورد في دائرة المعارف الاسلامية ان طول الذراع يساوي نحو خمسة وستين سنتمترا ، وعلى هذا الاساس قدر المرحوم يعقوب سركيس طول المقياس بنحو ستة عشر مترا (جريدة الزمان ليوم ٩ أيار ٩٥٠ ، ص٤) • اما نحن فنرجح الاخذ بتدقيق نللينو باعتبار الذراع مساويا ٤٩٣/٣ مليمتراً كما كان معمولا به في عهد المأمون ، وبذلك يكون طول المقياس مساويا ٣٣ر١٢ مترا بدلا من ستة عشر مترا •

وقد وقفنا على ذكر اثنتي عشرة قراءة سجلت على المقياس المذكور دونها المؤرخون خلال الفترة التي تمتد من سنة ٢٩٢ هـ ، وهي السنة التي انشىء فيها المقياس ، الى سنة ٥٧٣ هـ ، اي لمدة حوالي ثلاثمائة سنة ، منها سبع قراءات لسبعة فيضانات سجلت خلال المائة سنة الاولى (القرن الرابع الهجري) وخمس قراءات لخمسة فيضانات خلال القرنين الخامس والسادس • ويلاحظ في هذه القراءات ان اعلى مستوى دون لهذه الفيضانات هو مادون عن فيضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فسجل مستوى المياه ٢٣ ذراعا يوم ٢٣ رمضان من تلك السنة ، ويوافق ذلك احد ايام نيسان من سنة ١١٧٤ م • ولما كان المفروض ان اسفل المقياس وضع في اعمق موضع من عقيق النهر ، او في اوطأ مستوى لمياه النهر فيكون الفرق بين هذا المستوى ومستوى ذروة فيضان سنة ٥٦٩ هـ — ١١/٣٥ متـرا •

ولاهمية قراءات هذا المقياس من الناحيتين التاريخية والفنية بالنسبة الى ري العراق ندرج فيما يلي جدولا بها مع تاريخ تسجيل كل منها بالتاريخ الهجري وما يقابله بالتاريخ الميلادي مع بيان المراجع المستند اليها •

المنسوب بالذراع	التاريخ الهجري		مايقابله بالتاريخ الميلادي
٢١	جمادى الاول	٢٩٢	اذار ٩٠٦ (٧)
١٩	شعبان	٣٢٨	ايار ٩٤٠ (٨)
١٨	رمضان وشوال	٣٢٩	ايار وحزيران ٩٤١ (٩)
٢٠½	سنة	٣٣٠	سنة ٩٤٢ (١٠)
٢١½	رمضان	٣٣٧	اذار ٩٤٩ (١١)
٢١	رمضان	٣٦٦	نيسان ٩٧٧ (١٢)
٢١	رمضان	٣٦٧	نيسان ٩٧٨ (١٣)
٢١	رجب — رمضان	٤٠١	اذار — مايس ١٠١١ (١٤)
٢١	ربيع الاخر	٤٥٤	نيسان ١٠٦٢ (١٥)

(٧) النجوم الزاهرة ٣ : ١٥٧ •
(٨) المنتظم ٦ : ٣٠٠ •
(٩) المنتظم ٦ : ٣١٥ — ٣١٦ •
(١٠) المنتظم ٦ : ٣٢٦ •
(١١) المنتظم ٦ : ٣٦٧ •
(١٢) المنتظم ٧ : ٨٣ •
(١٣) المنتظم ٧ : ٨٧ •
(١٤) ابن الاثير ٩ : ١٥٩ •
(١٥) المنتظم ٨ : ٢٢٥ ودول الاسلام ١ : ٢٠٦ •

٢١½	جمادى الاخرة	٤٦٩	كانون الثاني ١٠٧٧[١٦]
٢٣	رمضـــان	٥٦٩	نيسان ١١٧٤ [١٧]
٢٠	شـــوال	٥٧٣	نيســان ١١٧٨ [١٨]

وبالنظر لما كان لفيضان نهر الفرات من تأثير في الجانب الغربي من بغـداد ولفيضان نهـر ديالى من تأثير في الجانب الشرقي منها، فقد نصب مقياس على نهر الفـرات ومقياس اخر على نهر ديالى • وقد وقفنا على ثلاثة تسجيلات لقراءة المقياس الاول فيما بين سنة ٣١٦ هـ وسنة ٣٢٩ هـ ولما كان ذلك قد جاء دون ذكـر للموقع الـذي نصـب فيـه المقيـاس فليـس لدينـا ايـة معلومات عن موقعـه من نهـر الفرات ، الا اننا نرجح انه انشيء في مدينة الانبار بالقياس الـى اهميتهـا في العهد العباسي ، بدليل ان اول خليفة عباسي اتخذها عاصمة له قبل انشاء مدينة بغداد وبناء على ورود ذكر الانبار في عدة حوادث من اخبار فيضان نهر الفرات • واما المستويات التي سجلت على هذا المقياس فهي كما يلي : ــ

المستوى بالذراع	التاريخ الهجري	مايقابله بالتاريـخ الميلادي
١٢½	٣١٦	٩٢٨[١٩]
١١	شعبان ٣٢٨	ايار ٩٤٠[٢٠]
١١	٣٢٩	٩٤١ [٢١]

واما مقياس نهر ديالى فقد وقفنا على قراءة واحدة سجلت عليه وكان ذلك في فيضان سـنة ٤٥٤هـ ــ ١٠٦٢ م حيث ورد ذكر زيادة تامـرا (نهر ديالى) ٢٢ ذراعا وكسرا [٢٢] والارجح ان هذا المقياس كان قد نصب في مدينة بعقوبا لاهمية موقعها على طريق خراسان العام •

١١ ــ مشاريع نهر الفرات الاوسط

أ ــ مشروع سد حلبية القديم :

كان الاقدمون قد اقاموا مشروعا على نهر الفرات الاوسط في المضيق الذي تشكله جبال حم عبر النهر امام خرائب حلبية زلبية الواقعـة على مسافة ٩٢ كيلومترا من شمال مصب الخابور،

(١٦) المنتظم ٨ : ٣٠٥ •
(١٧) المنتظم ١٠ : ٢٤٤ ــ ٢٤٧ ؛ ابن الاثير ١١ : ٢٧٠ ؛
(١٨) المنتظم ١٠ : ٢٧٢ ــ ٢٧٣ •
(١٩) المنتظم ٦ : حوادث سنة ٣١٦ هـ •
(٢٠) المنتظم ٦ : ٣٠٠ •
(٢١) المنتظم ٦ : ٣١٥ ــ ٣١٦ •
(٢٢) المنتظم ٨ : ٢٢٥ •

والمشروع يتألف من سد انشيء في المضيق المذكور عبر نهر الفرات لرفع مستوى المياه في موسم الصيهود وارواء السهل الخصيب الواقع مابين الضفة اليمنى لنهر الخابور والضفة اليسرى لنهر الفرات بالطريقة السيحية • وقد ذكر المستر جيسني في كتابه عن رحلته المساحية الى العراق في سنة ١٨٣٦ ان مجرى الفرات في المضيق لم يزد عرضه على ٢٥٠ يردة وعمقه على سبعة فاثومات اي ٤٢ قدما •

وتوجد الان آثار لجدول قديم بجوار مضيق حم يسميه الاهلون « نهر المصران » ، ويمتد هذا الجدول من ضفة الفرات اليسرى في الاتجاه الجنوبي الشرقي حتى يصل الى حد رافد الخابور ، وقد عزا ايسيدورس حفره الى سميرا ميس ملكة آشور ، وقد ورد ذكره في رحلة زينوفون (٤٠١ ق•م•) فسماه « اراكسيس » • وقد اختلف المؤرخون في هذه التسمية اذ ذهب بعضهم الى ان النهر اراكسيس هو الرافد الخابور • ومهما كان الامر فالظروف المحيطة تدل دلالة واضحة على ان الجدول المذكور هو جزء من مشروع سد حم وكان الغرض من حفره ارواء السهل المجاور (انظر « المصادر عن ري العراق » للدكتور احمد سوسة ، ص ٩٢ ، ٩٦ ، ١١١ — ١١٢ ، ١٢٧—١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢—١٣٣) •

ب — نهر سعيد القديم :

وتدل الروايات التاريخية على ان هناك جدولا قديما ايضا يسمى نهر سعيد كان قد انشيء في زمن العرب لارواء بعض اراضي منطقة دير الزور الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، فكان هذا الجدول يتفرع في نقطة تقع على بعد حوالي ١٠٧ كيلومترات من جنوب مضيق حم او على مسافة ١١ كيلومترا من جنوب دير الزور ثم يمتد في السهل الواقع غربي الفرات مارا بالرحبة والدالية وبعد ذلك يعود فيصب في الفرات جنوبي مصب الخابور بمسافة قليلة •

ويقال ان هذا النهر كان قد حفره سعيد بن عبدالملك الاموي الذي كان حاكما على الموصل ، وان الاراضي التي يمر النهر منها كانت بالاصل عبارة عن سلسلة مستنقعات تكثر فيها السباع ، غير انه بعد ان منحت الى سعيد من قبل اخيه الخليفة الوليد قام باعمارها بحيث اصبحت صالحة للزراعة والسكنى •

وقد وصف ابن سرابيون هذا النهر في القرن التاسع الميلادي فقال : « يحمل من الفرات نهر سعيد اوله تحت القبة التي تعرف بفم نهر سعيد تمر الضياع التي في غربي الفرات وتمر فتسقي ضياع الرحبة وتصب في الفرات فوق دالية مالك بن طوق بعد مايتفرع منه انهار في ضياع الدالية في الجانب الغربي » • وقد ذكر قدامة ان نهر سعيد كان يأخذ من الفرات في نقطة تقع على بعد ثمانية فراسخ من شمال قرقيسيا الواقعة بالقرب من مصب الخابور •

ج ـ مشروع سكير العباس القديم ووادي الثرثار :

وقد ايد ابو الفداء في كتابه « تقويم البلدان» قديم قد يصح تسميته باسم « مشروع سكير العباس » ، ذلك ان سدا شيد فوق ملتقى الرافد هرماس او نهر نصيبين بالخابور في موقع «سكير العباس » لتحويل مياه الرافد الثرثار الذي كان يتفرع من فوق السد مباشرة وينتهي الى دجلة في جوار تكريت • وكلمة سكير تصغير سكر السد الذي يقام على مجرى النهر لرفع مستوى المياه فيه ، وكانت مياه نهر هرماس بفضل هذا السد تحول الى نهر الثرثار • اما نهر الثرثار فكان يجتاز منطقة السنجار ثم يقطع جبل حمرين وبعدان يمر بالحضر يصب في دجلة في جوار تكريت • وقد ذكر ياقوت ان مدينة الحضر تقع على نهر الثرثار على وسط الطريق بين سنجار وتكريت ، كما ذكر ياقوت ان السفن كانت تسير في نهر الثرثار وكانت عليه قرى ومدن وعمارات ، ومما قاله ابن سرابيون « ان نهر الثرثار يخرج من نهر الهرماس اوله من سكير العباس في وسط البرية ويصب في دجلة اسفل من تكريت بعد ان يمر بالحضر ويقطع جبل بارما » •

وقد ايد ابو الفداء في كتابه «تقويم البلدان» انصباب نهر الثرثار بدجلة قال : « فيتشعب من الهرماس نهر الثرثار ويمر بالحضر في دجلة اسفل من تكريت وقيل فوق تكريت بفرسخين » • هذا وذكر ابن الاثير ايضا ان نهر الثرثار « يفرغ في دجلة بين الكحيل وراس الايل من عمل الفرج » • كما ايد ابن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » انصباب نهر الثرثار في دجلة ، الا انه لم يعين النقطة التي كان يصب فيها بدجلة • ويوجد الان واد قديم ينتهي الى دجلة قرب تكريت يعرف باسم « وادي شيشين » فمن المحتمل ان يكون من آثار نهر الثرثار • يتضح من ذلك ان بحيرة الثرثار الحالية الواقعة جنوب الحضر والتي يصب فيها وادي الثرثار في الوقت الحاضر لم تكن موجودة في ذلك العصر عندما كان وادي الثرثار يصب في نهر دجلة في جوار تكريت• اما تكوين البحيرة فقد كان للعوامل الطبيعية دور بارز في ذلك كتأثير الزلازل والبراكين والرياح وغيرها التي تساعد على حدوث الانفلاق في الطبقات الارضية • وربما كان احدث حادث من هذا النوع هو الانخساف الارضي الذي ظهر في بادية الشام في داخل العراق في شهر آذار من سنة ١٩٤٤ في جوار « الشبجة » على مسافة ١٦٠ كيلومترا من مدينة النجف غربا اثر هزة ارضية فانهارت الارض وتكونت فوهة عمقها حوالي ٩٠ قدما وقطرها ١٢٠ قدما ، وعلى هذا يكون حجم الاتربة التي غارت تحت الارض ١٣ر٥ مليون قدم مكعب او حوالي ٣٧٩٠٠٠ طن وزنا • وقد علق جيئولوجي الحكومة على هذا الحادث بقوله « ان كثير من الانفلاقات والتجاويف والفوهات الارضية تظهر في مناطق البادية الكلسية في العراق وسبب وجودها او توسعها يرجع الى عوامل الذوبان المستمر بسبب وجود المياه الجوفية ، وقد تتوسع هذه الفوهات في بعض الاحيان الى حد كبير نتيجة للهبوط او للانخساف الارضي الذي يرافق الذوبان المذكور • ومما يذكر في هذا الصدد ان هذه المياه الجوفية متأتية في الاصل دون ماريب من سقوط الامطار في مناطق البادية المجاورة لها • «انظر : « ري سامراء في عهد الخلافة العباسية » للدكتور احمد سوسة ج٢ ، ص ٥١٤ـ٥٦٣ » •

١٢ ــ مشاريع نهر الفرات في منطقة الدلتا

كان نهر الفرات في هذا العصر يغذي بعد دخوله حدود الدلتا أربعة أنهر رئيسية كانت كلها تتفرع من ضفته اليسرى وتتجه بالتسلسل الواحد تلو الآخر نحو نهر دجلة ، فتصب فيه بعد ان تمر بالمدن والقرى وتروي الاراضي الزراعية الواقعة بين الفرات ودجلة في المنطقة التي تمتد بين بغداد والكوت وبين الفلوجة والناصرية على نهر الفرات•واتجاه هذه الانهر من الفرات نحو دجلة فرضته طبيعة أراضي مابين النهرين التي تنحدر من الفرات نحو نهر دجلة ، وهذا هو نفس الاتجاه الذي كانت تسير فيه الأنهر القديمة مثل نهر ملكا ونهر كوش القديمين • وكانت الانهر الاربعة هذه وهي أنهر عيسى وصرصر والملك وكوش على التوالي ، تسير متوازية مع بعضها في امتدادها نحو نهر دجلة ومدينة بغداد الغربية (مدينة المنصور المدورة) •

أ ــ نهر عيسى ومدينة بغداد الغربية (مدينة المنصور المدورة)

كان هذا النهر أول الانهر الاربعة التي تأخذ من نهر الفرات بعد دخوله الدلتا ويتفق المحققون على أنه كان يسير في اتجاه مجرى الصقلاوية القديم (مجرى الكرمة) الذي يقطع الاراضي المنبسطة الواقعة بين الفرات ودجلة بمنخفض عقرقوف غربي بغداد ثم يصب في دجلة جنوبي بغداد في ميزل الخر او الوشاش الحالي • وقد ذكر لي سترانج في كتابه «بغداد في عهد الخلافة العباسية» ان نهر عيسى كان فوق هذه الجداول واغزرها ماءاً ويروي نصف أراضي بغداد الغربية •

ومما يؤيد ان نهر عيسى هذا كان يمر بنفس المنطقة التي يمر بها مجرى الصقلاوية الحالي هو ان بعض الأنهر والمواقع في منطقة الصقلاوية لاتزال تعرف بأسم عيسى كتل عيسى مثلا الذي يقع فيذنائب جدول الصقلاوية وشاخة البو عيسىالمتفرعة من الضفة اليمنى من فرع الكصاوي (أحد فروع جدول الصقلاوية) والعيساوية (احد شاخات فرع علي السليمان) الخ •••[٢٣]

ويروي المؤرخون ان نهر عيسى حفر في عهدالفرس ثم أعاد حفره الامير عيسى بن علي عم المنصور ووسعه بحيث أصبح صالحا للملاحة بين الفرات ودجلة فسماه الناس بعد ذلك بأسمه، وكان ينفرد بأهميته حيث كان يعد من أعظم الجداول القريبة منمدينة بغداد وهو يصلالانبار بالعاصمة بغداد ، وكانت الانبار من اهم المدن في عهد العرب ولم تكن أقل اهمية في العهد السابق اذ كان الساسانيون قد جعلوها مذخر الحبوب لجيوشهم، ولعل اسم الانبار قد اشتق من ذلك •[٢٤] •

(٢٣) ان جدول الصقلاوية الحديث هو اول الجداول الفنية التي نظمت بعد الحرب العالمية الاولى في سهل دلتا مابين النهرين لارواء الاراضي المنحدرة في اتجاه منخفض عقرقوف الذي ينتهي غرب مدينة بغداد فيتفرع من الضفة اليسرى لنهرالفرات في نقطة تبعد ١٤ كيلومترا شمال مدينة الفلوجة فيمتد مسافة ١٨ كيلو مترا باتجاهالمجرى القديم لنهر الصقلاوية،ثم يتفرع الى فرعين، الفرع الشمالي المعروف باسم جدول عليالسليمان وطوله حوالي ١٥ كيلومترا والفرع الجنوبي المعروف باسم جدول ابراهيم العليوطوله ٢٨ كيلومترا . اما مساحة الاراضي التي يرويها المشروع فتبلغ حوالي ٢٠٠٫٠٠٠مشارة .

(٢٤) تقع اطلال مدينة الانبار على الضفة اليسرىلنهر الفرات جنوب قرية الصقلاوية الحالية وعلى

وصف أبن سربيون هذا الجدول وصفا جليا فدون أسماء القــرى والضياع الواقعة علــى جانبيه وبين مواقع القناطر والجسور عليه، ويؤخذ من وصفه أن النهر كان يسحب الماء من جنوب الانبار مباشرة • وكان نهر عيسى الرئيسي ينتهي الى دجلة جنوب بغداد • وكان قد أنشيء سد من الحجر على مجراه قبل مصبه في دجلة ، وذلك لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسين : شمالي وجنوبي ، يتفرعان من الجانب الايسر للنهر من امام السد ويجريان متوازيين نحو الشرق ثم ينتهيان الى نهر دجلة فيصبان في وسط بغداد الحالية بعد ان يسقيا الاراضي المجاورة لهما بين النهر الرئيسي ونهر دجلة • وكان هذا السد يحول دون وصول السفن الى دجلة ، لذلك كانت تنقل البضائع من السفن التي تصل الى هذا الموضع الى سفن اخرى وراء السد لمواصلة نقلها الى بغداد التي كانت مركزا تجاريا رئيسيا في ذلك العصر •وقد نشأت في زمن العرب بلدة في هذا الموضــع سميت « المحول » ، أي الموضع الذي تحول فيهالبضائع وغيرها من شحن السفن • وكان يعرف الجدول الشمالي بأسم « نهر الصراة » وقد بقيمحتفظا بأسمه الى ما بعد تشييد مدينة المنصور حيث صار يسمى « بنهر الصراة العظمى » وقد سمي هذا الاسم لتمييزه عن جدول آخر يتفرع منه كان يعرف باسم « الصراة الصغرى » وكان هــذا الجدول الاخير يتفرع مــن عمود الصراة العظمى فيسقي قسما من البساتين الواقعة على الجانب الأيسر من الصراة العظمى ثم يعود فيصب في الجدول الرئيسي الذي يتفرع منه •

اما الجدول الجنوبي الذي كان يتفرع من أمام السد أيضا فكان يعرف بأسم « نهر الرفيل » والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر هو اسم دهقان من الفرس أسلم على يد سعد بن أبي وقاص ، ثم صار يعرف في العهد العربي بأسم نهر عيسى نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور الــذي قام باعادة حفره وشيد عند مصبه في دجلة قصراً سميبأسم «قصر عيسى» • واما النهر الرئيسي الممتد بين الفرات ودجلة فصار يعرف بأسم نهر عيسى الاعظم بأعتباره النهر الرئيسي الذي يمون نهــر عيسى (الفرع) بالمياه • وكان يتشعب من الضفةاليسرى لنهر الرفيل في موضع يبعد نحوا من ميل تحت صدره فرع كان يعرف بأسم « نهر كرخايا » فيمتد بموازاة نهر الرفيل من الشمالمؤلفا شبكة

بعد حوالي ستة كيلومترات من جنوب صدر جدول الصقلاوية الحالي . وكان الفرس يسمونها « فيروز سابور » كناية من اسم بانيها الملك شابور (٢٤١–٢٧٢ م) ، وقد اصبح اسمها فــي العهد العربيفيروز سابور وهو يشملضاحية الانبار بما فيها من القرى على ان بعض مؤرخــي العرب اعتبرها من مدائن كورة سامراء ، وقداطلــق اميــان مرقــلان على المدينــة اســم بيريسابوراس (Pirisaboras) وذلك عند وصفه لحملة جوليان (٣٦٣م) كما انــه وصــف سورها المزدوج المنيع .

هذا وقد كان للانبار مكانتها السامية فــي زمن العرب اذا اتخذها الخليفة العباسي الاول ابو عبدالــه السفــاح (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)عاصمة لملكته وقد توفي في القصر الذي شــيده فيها ، وقد ذكر ياقوت ان ابا جعفر المنصور(١٣٦ هـ / ٧٥٤ م) اخا السفاح سكنها ايضا ردحا من الزمن ثم انتقل منها الى العاصمة الجديدةبغداد . وقد زعم المستوصفي الذي زارها في القرن الرابع عشر الميلادي ان طول سورها زهاءخمسة الاف خطوة .

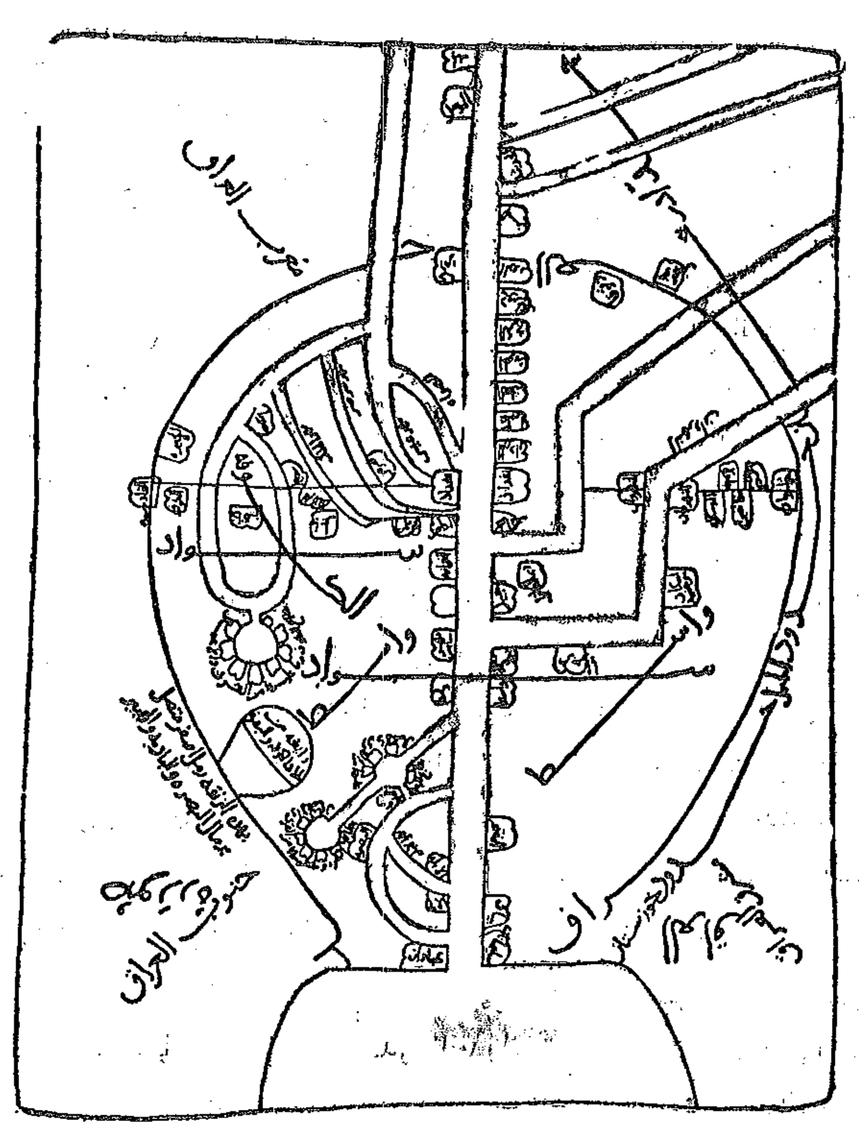
من القنوات بين نهر الصراة ونهر الرفيل بعضها يصب في الصراة والبعض الآخر في دجلة وفي نهر الرفيل نفسه ، ثم يعود فيصب في نهر الرفيل بعينه

وكان على طول نهر عيسى (الفرع) بين المحول ودجلة عشر قناطر كل منها يحمل أسم الربض الذي تقع فيه ، وكانت القنطرة الاخيرة تسمى قنطرة بني زريق وكان طريق البصرة العام يعبر فوقها • وكانت هذه القناطر تضمن المواصلات بين قسمي الكرخ من مدينة بغداد وكان سوق في كل قنطرة من هذه القناطر •

ب ــ نهر صرصر :

أما الجدول الثاني في سلسلة الجداول الاربعة فهو الجدول الذي كان يعرف بأسم « نهر صرصر » ، فكان هذا الجدول يسير في أتجاه جدول أبي غريب الحالي •[٢٥] فكتب ابن سرابيون (القرن العاشر الميلادي) في صدد هذا الجدول قال : ويحمل من نهر الفرات أيضا نهر يقال له نهر صرصر أوله أسفل من دمما بثلاثة فراسخ وهو نهر كبير ويسقى منه بدوالي وشواديف وعليه جسر وضياع وقرى ويمر ببعض بادوريا ومصبه في دجلة بين بغداد والمداين وهو فوق المداين بأربعة فراسخ في الجانب الغربي • وبعد حوالي سبعين سنة كتب ابن حوقل أيضا في وصف هذا الجدول قال : وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات فأولها مما يلي نهر صرصر وعليه مدينة صرصر عامرة النخيل والزروع وسائر الثمار قريبة من بغداد على ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومترا) (انظر المرتسم رقم ٣٨ صورة العراق لابن حوقل) • وقد جاء فيما كتبه أبو الفداء (٧٢١ هـ ــ

(٢٥) ان جدول ابي غريب الحديث يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفرات في نقطة تقع على بعد حوالي ثمانية كيلومترات جنوب الفلوجة عند خط العرض (٣٣ درجة و ١٨ دقيقة) ، فيشير اولا نحو الجنوب الشرقي لمسافة تقرب من ١٢ كيلومترا ثم ينحرف قليلا الى جهة الشمال الشرقي بضعة كيلومترات ويعود بعد ذلك فيسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي مرة اخرى حتى يصل الى الكيلومتر ٢٣ر٣٨٥ من طول الجدول ويقع هنا ناظم قاطعي يتشطر الجدول عنده الى فرعين ، الفرع الشمالي والفرع الجنوبي ، فالفرع الشمالي هو عبارة عن امتداد جدول ابي غريب نفسه ويبلغ طوله زهاء ٢٦ كيلومترا ،اما الفرع الجنوبي فيتفرع من الضفة اليمنى للجدول الرئيسي في مقدم الناظم القاطعي مباشرة ويمتد في الاتجاه الجنوبي ويبلغ طوله ٢١ر٦٧٥ كيلومترا اما مساحة الاراضي الزراعية التي يرويها هذا المشروع فتبلغ ٢٦٩ر٠٠٠ مشارة (تساوي المشارة ٢٥٠٠ متر مربع) •



المرتسم رقم (٣٨) ـ صورة العراق لابن حوقل

١٣٢١ م) ما يؤيد ان نهر صرصر كان يتفرع في نقطـة أسـفل صـدر نهـر عيسـى ، فقـال « انه يسير في سواد العراق الذي بين بغداد والكوفة حتى يصل الى صرصر ويسقي ما عليه من البلاد ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن » • اما الجسر الذي يشير اليه ابن حوقل فهو بدون شك الجسر الواقع على طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكوفة ، وقد ايد ابن رستة (٢٩٠هـ-٩٠٣م) ماذكره ابن حوقل حول هذا الجسر فقال انه يقع على بعد عشرة اميال من جنوب بغـداد ، وامـا مدينة صرصر التي ذكرها ابن حوقل فتقع على الجسر المذكور • وقـد ايد ذلك حاج خليفـة (١٦٠٠ م) ، الا انه اضاف قائلا ان هناك مدينتين ، مدينة صرصر العليا ومدينة صرصر السفلى ، فتقع الاولى بجوار بغداد على نهر عيسى والثانية على طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكوفـة وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بغداد •

ج ـ نهر الملك :

وكان الجدول الثالث المسمى بـ (نهر الملك) يسير الى الجنوب من صرصر وكان من الانهر المهمة التي كانت تتفرع من نهر الفرات وتقطع ارض ما بين النهرين جنوب بغداد . فكان عليه مثل نهر صرصر جسر على طريق الحج الرئيسي كما كان عليه مدينة تعرف بمدينة نهر الملك . ولعل نهر الملك كان يقتفي اثر نهر ملكا القديم (انظر ما تقدم عن نهر ملكا الفقرة ٧ من الفصل الحادي عشر) ، على انه ليس ثمة مايرشدنا الى تعيين الموقع الذي كان يتفرع منه النهر في ذلك الوقت بالضبط ، اذ لو استثنينا ابن سرابيون لوجدنا ان المؤرخين العرب لم يوردوا ذكر نهر الملك الا بمناسبة كتابتهم عن طريق الحجيين بغداد والكوفة . واليك ماكتبه ابن سرابيون في هذا الصدد قال : « ويحمل من الفرات ايضا نهر يقال له نهر الملك أوله اسفل من فوهة نهر صرصر بخمسة فراسخ وهو نهر كثير الضياع خصب وعليه جسر وقرى كثيرة وعمارات ويتفرع منه انهار كثيرة وهو طسوج من السواد ومصبه في دجلة اسفل من المدائن بثلاثة فراسخ من الجانب الغربي » . وكان على هذا النهر جسر على طريق بغداد ــ الكوفة يقع عند المدينة المعروفة باسم مدينة نهر الملك، وقد ذكر ابن رستة ان هذا الجسر يقع على مقربة من الجسر على نهر صرصر بمسافة سبعة اميال عن الاخير وان منطقة نهر الملك اشتهرت بنخيلها واراضيها الزراعية الخصبة . ومما كتبه ابن حوقل (ان نهر صرصر وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة اكبر من صرصر عامرة باهلها وهي اكثر نخلا وزرعا وثمرا وشجرا منها وليس بين بغداد والكوفة مدينة اكبر منها) . (انظر المرتسم رقم ٣٨ « صورة العراق لابن حوقل ») .

ويتضح من روايتي ابن سرابيون وابن رستة ان نهر الملك كان يتفرع من نهر الفرات في نقطة تقع جنوب نهر صرصر فافاد الاول بان صدر الجدول يقع على بعد خمسة فراسخ من جنوب صدر نهر صرصر ، كما وذكر الاخير ان جسر نهر الملك يقع على بعد سبعة اميال من جنوب جسر نهر صرصر ، ذلك مايؤيد ان نهر الملك كان يجري بالقرب من جدول الرضوانية الحالي ، وهذا ما يؤيده لي سترانج في بحوثه عن جداول العراق القديمة[٢٦] .

د ــ نهر كوثى :

وقد اشتهر نهر كوثى في العصر الاسلامي العربي ايضا بحيث كان اخر الانهر الاربعة الرئيسية التي كانت تأخذ من نهر الفرات وتنتهي عند نهر دجلة ، وقد اجمع المؤرخون العرب على ان نهر

---

(٢٦) يلاحظ ان الدكتور موسيل عين الموضع لصدر نهر الملك في موقع صدر نهر المحمودية وهذا يخالف ماجاء في روايتي ابن سرابيون وابن رستة ، كما انه لا يتفق مع اتجاه نهر الملك الذي نشاهد آثاره اليوم بالقرب من جدول الرضوانية ، اذ لا يخفى ان صدر جدول المحمودية القديم يقع على بعد ما يقارب الخمسين كيلومترا جنوب صدر جدول ابي غريب (نهر صرصر)، لذا فلا يمكن الاخذ بنظرية موسيل هذه .

كوثى كان في ذلك العصر يجري في جنوب نهر الملك يصب بدجلة جنوب مصب نهر الملك بقليل ، وذلك بعد مروره بمدينة كوثى • والارجح ان نهر كوثى هذا كان يقتفي اثر النهر الذي كان قد حفر من الجانب الايسر لنهر الفرات لايصال المياه الى مدينة كوثى وذلك بعد ان تحول مجرى نهر الفرات من اتجاه مدينة كوثى الى اتجاه بابل (انظر ماتقدم حول ذلك في الفقرة ٤ من الفصل التاسع) وقد ذكر ابن رستة ان هناك جسرا اقيم على نهر كوثى لتأمين مواصلة السير في طريق الحج الرئيسي بين بغداد والكوفة كما كانت عليه الحال في نهري صرصر والملك ، وان هذا الجسر كان يقع على بعد اربعة اميال من جنوب جسر نهر الملك •

والظاهر ان مدينة كوثى كانت في العصر العربي تقسم الى قسمين وهما كوثى الطريق وكوثى ربا وكان نهر كوثى يمر بالقسم الاخير من المدينة، وقد وصفها ابن حوقل بقوله : « وكوثى بلدان وناحيتان تعرف احدهما كوثى الطريق والاخرى بكوثى ربا•••مدينة يزعم قوم انها كانت اكبر من بابل » • وقد ايد ذلك ياقوت نقلا عن أبي بكر احمد بن أبي سهل الحلواني قال : « وكوثى العراق كوثيان احدهما كوثى الطريق واخر كوثى ربى وبها مشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وبها مولده، وهما من ارض بابل وهما ناحيتان » •

اما الموقع الذي كان يأخذ من عنده نهر كوثى فليس بين المؤرخين العرب من كتب عن ذلك الا ابن سرابيون الذي وصف هذا النهر فقال : « ويحمل من نهر الفرات ايضا نهر يقال له نهر كوثى اوله اسفل من نهر الملك بثلاثة فراسخ وهو نهر كثير الضياع والقرى وعليه جسر يتفرع منه انهار تسقي طسوج كوثى من كورة اردشير بابكان وبعض طسوج نهر جوبر ويمر بكوثى ربا ويصب في دجلة اسفل المداين بعشرة فراسخ في الجانب الغربي »[٢٧] •

ويرى الدكتور موسيل أن نهر كوثى كان يأخذ من عند المنطقة المعروفة اليوم باسم المجصة وهذه تقع بجوار صدر جدول الاسكندرية الحديث •وقد كتب المستر جيسني في بحثه عن الفرات في وصف نهر كوثى قال : « ان نهر كوثى يجري بصورة موازية تقريبا الى الثلاثة انهر الاخرى (يعني انهر عيسى وصرصر والملك) فيأخذ من عند تل محمد[٢٨] ثم يقطع الاراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات وفي منتصف الطريق يقسم الى قسمين ، الفرع الشمالي الذي يجري في الاتجاه الجنوبي الشرقي نحو نهر دجلة والفرع الجنوبي الذي كان يجري في الاتجاه الجنوبي ، أي نحو بابل مارا بخان الاسكندرية •

---

(٢٧) لقد ذكر ياقوت وقدامه ان نهر جوبر هذا كان يقع في مقاطعة اردشير بابكان التي سميت بهذا الاسم تخليدا لاردشير مؤسس المملكة الساسانية •

(٢٨) يقع تل محمد على مسافة ٤٢ كيلومترا بطريق النهر جنوب الفلوجة ، اي على مسافة ١٤ كيلومترا تقريبا شمال صدر اليوسفية الحالي •

هـ ـ نهرا سورا والعلقمي :

وعلى مسافة ستة فراسخ (حوالي ٣٠ كيلومترا) من صدر نهر كوثى جنوبا كان مجرى الفرات ينقسم في نقطة تقع في جوار بلدة الاسكندرية الحالية قسمين ، قسم يدعى نهر سورا وهو اكبرهما يمتد شرقا نحو نهر دجلة ، وقسم يحمل اسم الفرات يجري جنوبا نحو الكوفة حيث يقع جسر الكوفة ثم ينتهي الى البطائح.كان يعرف نهر سورا في القسم الاعلى من مجراه باسم « سورا الاعلى » ، فيتفرع منه في هذا القسم عدة فروع تسقي طسوج سورا وبربيسما وباروسما ويمر بازاء مدينة قصر ابن هبيرة بينهما اقل من ميل . وهناك على النهر جسر وهو جسر سورا حيث تقع مدينة سورا . وقصر ابن هبيرة هذا نزله السفاح واستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد في بنائه وسماه الهاشمية . وعلى مسافة فرسخ غربي قصر ابن هبيرة كان يتفرع من نهر سورا الاعلى نهر يسمى ابو الرحا يمر بمدينة قصر ابن هبيرة ويعود فيصب في نهر سورا الاعلى نفسه تحت المدينة بفرسخ . ثم بعد ان يستمر النهر الرئيسي في جريه شرقا مسافة ستة فراسخ يتفرع من جانبه الايمن فرع يقال له نهر سورا الاسفل ينحدر جنوبا نحو بابل كانت على فوهته قنطرة عظيمة يقال لها قنطرة القامغان ، وبعد ان يمر هذا الفرع بقرى ويتفرع منه انهار كثيرة تسقي منطقة بابل باسرها يصب في نهر البداة الذي يأخذ من الفرات في جوار الكوفة ويسقي سواد الكوفة الذي في شرق الفرات . وعلى مسافة ستة فراسخ على مجرى نهر سورا الاسفل يتفرع من جانبه الايسر نهر يقال له النرس فيجري الى الجنوب الشرقي وبعد ان يمر بقرى وضياع وتتفرع منه انهار تسقي سواد الكوفة او بعضه يصب في نهر البداة ايضا شرقي مصب نهر سورا الاسفل في البداة .

واذا جاوز نهر سورا الاعلى قنطرة القامغان التي في صدر نهر سورا الاسفل سمي هناك الصراة الكبيرة يمر بقرى وضياع وتتفرع منه هناك انهار تسقي الضياع التي في غربيه حتى يصل الى مدينة النيل وعليه هناك قنطرة يقال لها الماسي، فاذا جاوز النهر القنطرة سمي النيل نسبة الى مدينة النيل فيمر بقرى وضياع منه هناك انهار تسقي المنطقة التي في غربيه . ويتفرع من الجانب الايمن للنهر الرئيسي في هذه المنطقة نهر يدعى «صراة جاماس » وبعد ان يدور هذا الفرع حول مدينة النيل يعود فيصب في النهر الرئيسي اسفل مدينة النيل بثلاثة فراسخ. ثم يمر نهر النيل بقرى وعمارات الى موضع يقال له الهول بينه وبين النعمانية التي على شاطيء دجلة اقل من فرسخ . ومن هناك يطيف النهر فيمر الى نهر سابس القرية الراكبة دجلة ويسمى هناك نهر سابس ويصب في دجلة اسفل من القرية بفرسخ .

وقد سمى ابن سرابيون المجرى الذي ينتهي الى الكوفة باسم نهر الفرات بينما يسميه كل من المسعودي وقدامة العلقمي ، فبعد ان يشير المسعودي الى الانهر الاربعة التي تصب في دجلة

يقول : « ثم ينقسم الى جهتين قسم منهما يتوجه بسيره نحو الغرب يسمى سورا يمر بمدينة سورا الى النيل والطفوف ويسقي كثيرا من اعمال السواد ثم ينتهي جميع ذلك الى بطيحة البصرة وواسط التي ينتهي منها الى هذا البحر في دجلة العوراء ».(التنبيه والاشراف ،ص ٥٢ ؛ سهراب ١٢٤ــ١٢٥؛ موسيل ، الفرات الاوسط ، ٢٧٤ــ٢٧٧ ؛ كتاب الخراج لقدامة، المكتبة الجغرافية العربية، ٢٣٣).

وقد جاء ذكر العلقمي ايضا في «تاريخ الدولة السلجوقية » للبنداري الاصفهاني (١٢٢٦ م) حيث ورد فيه ان جدول العلقمي كان يمر بالمشهدين (اي كربلاء والنجف) وقد تم تطهيره وترميمه في سنة ٤٧٨ هـ (٥٨٥ م) ، كما ورد ذكره في كتاب النويري (١٣٣١ م) « نهاية الارب في فنون الادب » (انظر عن اثار هذا الجدول كتاب «بقية النبلاء في تاريخ كربــلاء » للسيد عبدالحسين الكليدار ، ص ٨٢ ــ ٨٣) .

و ــ خندق سابور ونهر كرى سعده

ويؤخذ من روايات المؤرخين ان هناك نهرا يعرف باسم « خندق سابور » كان يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من موضع يقع بالقرب من هيت فيمتد على طــول الحدود الغربيــة للعراق المحاددة للبادية وينتهي في البحر قرب مصب نهربوبيان وهو مدخل مصب الفرات القديم الواقع على بعد حوالي ٢٠ ميلا من غربي شط العرب . وكان هذا النهر يقتفي اثر نهر العلقمي في قسمه الجنوبي وقد اتخذ قاعدة للذود عن غزو العرب لتخوم العراق الغربية. وقد نسب بعض المؤرخين حفر هذا النهر العظيم الى نبوخذنصر (٦٠٤ــ٥٦١ق.م) بينما نسبه البعض الاخر الى الملك انوشروان الذي حكم بين سنة ٥٣١ و ٥٧٨ الميلادية.فكتب ياقوت في وصف هذا النهر قال : «ولما ملــك انوشروان بلغه ان طوائف من الاعراب يغيرون على ما قرب من السواد الى البادية فأمر بتحديد سور مدينة تعرف بالوس كان سابور ذو الاكتاف (٣٠٩ــ٣٧٩ م) بناها وجعلها مسلحة لحفظ ماقرب من البادية وامر بحفر خندق من هيت يشق طرف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون ذلك مانعا الى اهل البادية عن السواد » .

وقد ايد موسيل العالم الجيكوسلوفاكي الذي قام بتتبعاته في العراق بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٥ انه شاهد اثار نهر قديم يبدأ من نقطة تقع على بعد بضعة كيلومترات من جنوب هيت ، وقد لاحظ ان ضفافه في هذا القسم مرصوفة بالاحجار بصورة محكمة.وقد اشار سير ويليام ويلكوكس في الخارطة التي نظمها لمقاطع نهر الفرات بين هيت والشامية الى اثار لنهر قديم يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات في نقطة تقع على مسافة حوالي ١٧ كيلومترا من جنوب مدينة هيت ، ويغلب على الظن بان تلك الاثار تعود لذلك النهر (راجع الخارطة رقم ٧ من خارطات سير ويليام ويلكوكس الملحقة بتقريره عن ري العراق) .

ويذهب البعض الى ان النهر المعروف باسم كري سعدة الذي لا تزال آثاره ظاهرة في معظم اقسامه من جهة غرب الفرات هو نفس النهر الذي نسب الى نبوخذ نصر ثم الـى الملك انوشروان، فقد كتب البلاذري (٢٥٥هـ ــ ٨٥٥م) في وصف نهر نسبه الى سعد بن عمرو بن حرام قال : «وحدثني ابو مسعود وغيره ان دهاقين الانبار سألوا سعد بن ابي وقاص ان يحفر لهـم نهرا كانوا سألوا عظيم الفرس حفره لهم ، فكتب الى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم » •

ويميل الدكتور موسيل الى الاعتقاد بان نهر محدود الذي ورد ذكره في « معجم البلدان » لياقوت يسير في نفس الاتجاه الذي يسير به « نهر كري سعده » حيث كان يأخذ هـذا النهـر اي نهر محدود من الضفة اليمنى لنهر الفرات وذلك في موضع يقع جنوب هيت ايضا • فكتب ياقوت في وصف هذا النهر بقوله : « المحدود اسم نهر بارض العراق قـرب الانبـار في جانب الديار الغربي منها امرت بحفره ام الخيزران ام الخلفاء(النصف الاخير من القرن الثامن الميلادي) وسمته المريان وكان وكيلها قد جعله اقساما وحد كل قسم ووكل بحفره قوما فسمي المحدود لذلك » • وكتب البلاذري في وصف هذا النهر بنفس الكلام • واذا سـلمنا بمـا ذهب اليه ياقـوت من ان النهر يقع بالقرب من الانبار وجب علينا التحري عن الموضع الذي كان يأخذ منه هذا النهر في المنطقة الواقعة شمال غربي الفلوجة وليس في المنطقة الواقعة في جنوب هيت • والذي نراه هو ان نهـر محدود هذا لم يكن الا احد الانهر التي فتحت في زمن العـرب على ضفتي نهر الفرات ، ولعله كان يأخذ من الضفة اليمنى لنهر الفرات من امام نهر الملك حيث نجد آثاراً لسد قديم على نهر الفرات في ذلك المكان ، ثم يتصل بنهر كري سعده في القسم الذي يمتد بين كربلاء والكوفة • ويغلب على الظن بان نهر محدود هذا يقتفي أثر نهـر العلقمي[٢٨] •

١٣ ــ مشاريع نهر دجلـة

اما الانهار على نهر دجلة فكانت تتفرع في الضفتين من امام سد نمرود الـذي كان يرفـع مستوى المياه في النهر (انظر ما تقدم عن هذا السد الفقرة ٧ الفصل التاسع) فتـروي الاراضـي الممتدة بين سامراء والكوت في الجانب الشرقي وبين سامراء وبغداد في الجانب الغربي ، وأهم هذه الجداول النهروان في الجانب الشرقي والاسحاقي في الجانب الغربي •

١ ــ النهروان في العهد العربي الاسلامي

وكان هذا الجدول أعظم واوسع جدول عرفه العالم القديم ولعله أطول وأكبر الجداول التي انشئت في العالم حتى الان • فكان يسحب المياه من الجهة الشرقية لنهر دجلة وذلك في نقطة تقع جنوب تكريت في جوار قرية الدور فيروي الاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة، فيمتد مسافة حوالي مائة ميل شمال بغداد ومسافة مماثلة جنوبها حتى يصل الى جوار مدينة الكوت • وكان هذا الجدول قد حفر في الاصل من قبل البابليين ثم استغله الساسانيون ، فحافظ العـرب

(٢٨) انظر الدكتور احمد سوسة ، «وادي الفرات » ، ١٩٤٤ ، ج١ ، ص ٣٠ ومابعدها .

عليه بعد فتحهم للعراق ونظموا مياهه ونسقوا فروعه والقرى والمدن عليه فجعلوا من أراضي دجلة الشرقية مزارع واسعة وحدائق غناء ازدحم بها السكان وعمها الرخاء والرفاه . واذا لاحظنا ان عرض هذا الجدول يصل في بعض اقسامه الى حد المائة والعشرين مترا وعمقه في بعض الاقسام يبلغ اكثر من عشرة امتار اتضحت لنا اهمية هذا المشروع وعظمته فلا تعجب اذن اذا قال ويلكوكس « ان النهروان كان يؤثر تأثيرا محسوسا في موسم الفيضان عندما كان يسحب اقصى استيعابه للمياه » . وقوله ايضا « انه لا يوجد جدول سواء اكان في مصر او في الهند يمكن ان يضاهي النهروان في حجمه ، فان اوسع جدول في مصر لا يتجاوز عرضه الستين مترا وعمقه العشرة امتار » .

وكان للنهروان ثلاثة مداخل رئيسية تتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجلة في منطقة سامراء ، منها مدخلان يتفرعان من جنوبي سامراء، ويتفرع الثالث من شماليها فيؤلف المدخلان الجنوبيان المجرى الرئيسي الاصلي للنهروان وقد انشئا وفق الطريقة المتبعة في ذلك الوقت، أي على أساس انشاء مدخلين للجدول أحدهما خاص بموسم الفيضان يستعمل عند ارتفاع مستوى مياه النهر وهو الاسفل ، والثاني خاص بموسم الصيهود (موسم شح المياه) وهو الاعلى . وعلى هذا الاساس أنشىء هذان المدخلان الواقعان في جنوبي سامراء، فالمدخل الاعلى ، اي الصيفي ، يعرف اليوم بأسم (نهر القائم) نسبة الى البرج القائم عنده المسمى ببرج القائم[٢٩] . وكان يعرف مجرى القائم بالقاطول وهو القاطول الذي أعاد الرشيد حفره وبنى عليه قصراً ليقيم فيه عندما يخرج للتنزه هناك، وقد سمي بأسم « نهر ابي الجند » . اما المدخل الاسفل وهو الذي يستعمل وقت الفيضان، فيسمى موقعه بالصنم ، ويرجع منشأ هذه التسمية الى عثور الاهلين على نصب كان عند فم هذا المجرى

---

(٢٩) يتكون هذا البرج من بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه حوالي ستة امتار وأرتفاعه عن الارض المجاورة ١٥ الى ٢٠ مترا ويقع على فم مجرى القائم تماما . ويظهر من الآثار المتبقية ان بناء البرج الداخلي بني بالجص والحصى الخشن، والارجح ان وجه البناء كان مغلفا بطبقة من الاجر عليها بعض الكتابة وان هذه الطبقة تخربت او قلعت منها مادة الاجر التي فيها لاستعمالها في ابنية سامراء . ويلاحظ في الجهة الشرقية من البرج آثار يستدل منها على انه كان في تلك الجهة سلم مدرج يصعد بواسطته الى قمة البرج .

ويعتقد البض بأن البناء كان نصبا تذكاريا أقيم بمناسبة انشاء الجدول ، وهي الطريقة المتبعة منذ اقدم العصور حتى الان عند انشاء الجداول فيدون عادة على النصب اسم القائم بالمشروع وتاريخ انشائه وغير ذلك من الامور المتعلقة بالمشروع . وقد اختلف المحققون في أمر تعيين تاريخ هذا البناء فالبعض ومن هؤلاء مس بيل ، يعتقد بأنه اقيم عندما انشىء المشروع ، ولذلك فهو أقدم من العصر العربي . والذي نراه هو ان البرج قديم جدا ، والارجح ان البناء الاصلي يرجع الى العصر الذي انشىء فيه النهروان وهو العهد الساساني ، ثم اعيد انشاؤه على عهد الرشيد عندما أعاد الرشيد حفر المجرى نفسه ، ولعل المتوكل اضاف اليه بعض الزخارف او قام بتقويته . والدليل على هذا أن الحموي يذكر بأن القائم (بنية كانت قرب سامراء من ابنية المتوكل) كما أن ابن عبدالحق يؤيد ذلك بقوله أن القائم (بنية قرب سامراء من ابنية المتوكل) .

على شكل برج القائم . اما المدخل الشمالي الذي يأخذ من شمالي سامراء وهو ثالث المداخل فكان يحيط بسامراء من جهتها الشرقية ، وكان يعرف بأسم القاطول الأعلى الكسروي نسبة الى كسرى انوشروان الذي قام بحفره لارواء الاراضي الواقعة في جنوبي سامراء على ضفتي مجرى النهروان الرئيسي في القسم الاعلى منه ، وهي الاراضي المرتفعة الى مستوى مدخل مجرى النهروان الاسفل . وقد سمي هذا المجرى بالقاطول الكسروي لتمييزه عن القاطول الاسفل، أي مجرى القائم الذي كان يسمى القاطول ايضا في العهد العربي .

وقد استغل الخليفة المتوكل (٢٣٢–٢٤٧هـ/٨٤٧–٨٦١ م) هذا القسم من المجرى ، فأنشأ سداً عليه في نقطة تقع مقابل مدينة سامراء الحالية شرقا وفتح نهراً يأخذ من الضفة اليسرى من امام السد وكان يعرف بالشاذروان ليروي الحدائق والبساتين والغابات التي أسست في السهل الواسع الواقع بين القاطول الكسروي ونهر دجلة جنوبي سامراء . وكان يعرف هذا النهر بأسم « نهر نيزك » وقد أحيطت هذه الحدائق والبساتين والغابات بسور من كل اطرافها واسس داخلها حير للوحوش وهو ما نسميه « حديقة الحيوانات » . ويبلغ مجموع طول هذا السور حوالي ثلاثين كيلو مترا ويضم داخله مساحة تبلغ حوالي (٥٣) كيلو مترا مربعا ، أي حوالي ٢٢ ألف مشارة عراقية . وكان نهر نيزك يخترق الحير من الوسط وبعد ان يسقي حدائق الحير ينتهي عند البركة الجعفرية والقصر المجاور لها ، اما مياه البركة فتفرغ في نهر دجلة حسب الحاجة بوساطة مجاري تحت الارض . وقد وصف البحتري في قصائده الحير والقاطول ونهر نيزك والوحوش التي ذكر ان عددها الفا وحش ، كما وصف البركة الجعفرية والقصر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها « يامن رأى البركة الحسناء » وصفا مستفيضا[٣٠] .

ومن جملة الاعمال التي كان يتطلبها مشروع النهروان حجز مياه النهرين «العظيم» و «ديالى» وهما النهران اللذان ينحدران من المنطقة الجبلية شرقي العراق فيصبان في الضفة الشرقية من دجلة ، وذلك ليتسنى للنهروان اجتيازهما في طريقه الذي يمتد بموازاة نهر دجلة شرقا . وقد عالج الاقدمون ذلك بأنشاء سدين ضخمين من الاحجار على المجرين المذكورين لتحويل مياههما عن اتجاهيهما الاصليين ، وكان ذلك في الموقع الذي يقطع فيه كل منهما سلسلة جبال حمرين . ولاتزال اثار هذين السدين ماثلة للعيان يمكن مشاهدتهما في موقعي اختراقهما سلسلة جبال حمرين المذكورة . وقد حولت مياه فيضان العظيم من امام السد الذي اقيم على النهر عند جبل حمرين الى بحيرة الشارع جنوب شرقي سامراء فأنشىء فيها خزان يسوق جدول النهروان بالمياه في موسم الصيهود (موسم شح المياه) . اما مياه فيضان نهر ديالى فقد حولت من امام السد الذي اقيم على النهر عند جبل حمرين الى بحيرة الشويجة شرقي مدينة الكوت عن طريق مجرى جدول الروز الحالي

---

(٣٠) انظر « رى سامراء في عهد الخلافة العباسية » للدكتور احمد سوسة ، ٢ : ٢٥٨ – ٣١٣ .

ومنها الى نهر دجلة في جوار الكوت • واما المياه الصيفية فقد حولت الى جداول الري المتفرعة من جانبي النهرين المذكورين • والارجح انه كان في كل من السدين فتحات يحول منها بعض المياه الى النهروان عند الحاجـة •

وكان ديالى الحالي يعرف في زمن العرب بأسم (نهر تامرا) أما تسمية نهر ديالى فكانت تطلق على جدول بهذا الاسم يتفرع من الجانب الغربي من النهروان وينتهي الى قرب نهر دجلة جنوب بغداد • الا انه بعد انهيار سد ديالى في جبل حمرين وانقطاع المياه عن مجرى النهروان عاد النهـر يسيل في مجراه القديم الذي كان يسلكه قبل انشاء مشروع النهروان الكبير الذي يستمد مياهه من القواطيل قرب سامراء مخترقا مجرى النهروان في طريقه الى دجلة وصار يعرف بأسم نهر ديالى نسبة الى فرع ديالى الذي كان يأخذ من النهروان وينتهي الى نهر دجلة جنوب بغداد• وكذلك عاد نهر العظيم بعد انهيار السد الى مجراه الاصلي مخترقا جدول النهروان المندرس منحدرا صوب نهر دجلة حتى مصبه الحالي في جنوب سامراء • وتشاهد اليوم اثار سدين ضخمين على نهر العظيم في موقع اجتيازه سلسلة جبل حمرين احدهما في مضيق جبل حمرين والثاني على بعد بضعة كيلو مترات جنوبا مما يدل على ان احد السدين كان قد انهار فأنشيء سد آخر ليحل محله • ولعل سبب انهيار السد الاصلي يرجع الى عدم صلاحية التربة التي انشيء عليها السد • والسؤال الذي يتبادر الـى الذهن : أي السدين كان قد انشيء أول مرة أهو الاعلى ام الاسفل ؟ فالارجح ان يكون قد انشيء السد الاخير فوق السد المنهار وبذلـك يكون السد الاصلي هو السد الاسفل •

وفي العهد الاخير أنشيء سد بنائي على نهر ديالى عند ملتقاه بالنهروان لتحويل مياه نهر ديالى الى النهروان في قسمه الاسفل واستمرار الزراعة في ذلك القسم • وكان يعرف هذا السد بأسـم «سد السهلية» الا انه كان مهددا بفيضانات النهـر سنويا فكان يرمم بين الحين والاخر كلما حدثت تخريبات فيه • وقد جرت محاولة لاعادة انشاء هذا السد على عهد مدحت باشا (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) الا ان محاولته هذه فشلت لان السد لم يقو على الصـمود امام فيضان ديالـى الشديد • وقـد اقترح ويلكوكس في جملة مشاريعه التي قدمها بعد ذلك اعادة انشاء هذا السد لاحياء القسـم الاسفل من النهروان على ان تحول مياه فيضـان ديالى الى المجرى القديم الذي كان يجري في اتجاه مجرى الروز الحالي الى نهر دجلة جنوب الكوت •

يتضح مما تقدم ان موضوع النهروان موضوع معقـد للغاية ويتعذر تفهم تطوراته دون الوقوف على تفاصيل تأريخ هذه المنطقة بأسرها • لذلك فقد ذهب بعض الباحثين والمؤرخين الى ان النهروان كان يعبر فوق نهر ديالى استنادا الى ان آثار مجرى النهروان القديم لاتزال تشاهد وهي تتقاطع مع نهر ديالى الحالي في نقطة غير بعيدة من جنوب بعقوبة • ومما ذكره المرحوم العميد الركن البحاثة السيد طه الهاشمي في كتابه « مفصل جغرافية العـراق » ان النهروان كـان « يقطع ديالى في جوار بعقوبة فوق جسر من حجر» (ص٢٥٢) • وهذا مالا يسعنا تقبله لاسباب فنية واضحة وهي

ان تصريف نهر ديالى يصل في بعض الفيضانات الى حوالي (٣٥٠٠) متر مكعب في الثانية كما حدث فعلا في فيضان سنة ١٩٤٦ ، وليس من السهل حتى في عصرنا هذا اقامة مثل هذا الجسر لامرار مثل هذا التصريف الكبير فوقه . وفضلا عن ذلك فلو كان قد انشيء مثل هذا الجسر الضخم الذي يجب ان يستوعب كل التصريف المذكور لما اغفل ذكره المؤرخون ولكان بقي له بعض الاثر في أي حال من الاحوال .

واما فيما يختص بتأريخ انشاء النهروان فيكاد يكون الاجماع على انه أنشيء أو جدد على عهد الساسانيين . ويذهب بعض المؤرخين الى ان انشاء النهروان كان مقرونا بدوافع عسكرية تستهدف وقاية البلاد من غزوات الرومان . فيقول هؤلاء بأن الفرس قاموا بأنشاء هذا المشروع بعد ان شعروا بان القطر العراقي ، الذي كان في حوزتهم ، أصبح مهددا من جهة شرقي دجلة حيث صار الرومان يسلكون طريق نصيبين او سنجار او ارمينية في غزواتهم فينزلون سهوله عن طريق المنطقة الآشورية شرقي دجلة في المواسم الملائمة حتى باب طيسفون . وقد شعر الفرس بان بقاء هذا السهل بالشكل الذي كان عليه يهدد كيان دولتهم وانهيار امبراطوريتهم فقاموا بأنشاء النهروان كمشروع دفاعي في الدرجة الاولى . اما فوائده الزراعية فكانت في بادىء الامر ثانوية ولكنها اصبحت الهدف بعد ان زال خطر الغزو على عهد العرب . وغير معلوم بالضبط في أي من عصور عواهل الفرس أنشيء مشروع النهروان ، على ان هناك من يعتقد بأنه كان بديء به على عهد العواهل الاول والارجح انه تم انشاؤه في زمن سابور الثاني الذي تمتع عهد حكمه الطويل بفترة سلم مكنته من انجاز هذه المشاريع دون اعتراض او حائل .

اما تسمية النهروان فهناك مايدل على انها قديمة للغاية فقد جاء ذكر نهر بهذا الاسم في اسطوانة اكتشفت في خرائب خفاجي الواقعة شرقي نهر ديالى بين بعقوبة وبغداد وذلك قبل ان ينشأ النهروان الموسع الذي يأخذ من قرب سامراء . والظاهر ان هذه الاسطوانة كتبت على عهد شمسو ايلونا بن حمورابي وخليفته الذي ورد اسمه مقرونا باسم الموقع (دور شمسو ايلونا) المسمى (خفاجي) الان ، وهي تعود الى ماقبل ٩٠٠ ق.م. على الاقل ، والارجح ان هذا النهر كان يتمون من نهر ديالى في ذلك العصر واصبح بعد انشاء مشروع النهروان الواسع الذي يأخذ من دجلة قرب سامراء جزءا من ذلك المشروع ، اي اصبح يكون القسم الاسفل للنهروان[٣١] .

شرحنا فيما تقدم تفاصيل مشروع سد نمرود القديم بما في ذلك مشروع النهروان في منطقة سامراء (انظر الفقرة ٧ من الفصل التاسع) وهناك ما يدلنا على ان العرب استغلوا منطقة النهروان كلها ، وهي المنطقة التي تمتد من الصدر قرب سامراء حتى الذنائب قرب

(٣١) يجد القارىء بحثا مفصلا عن تاريخ النهروان في كتاب « ري سامراء » للدكتور احمد سوسة ويقع في جزئين .

الكوت ، وقد بلغ هذا الاستثمار ذروته في العهد العباسي الزاهر • ففي هذا العهد كان « القاطول الاعلى الكسروي » عامرا تجري فيه المياه بصورة دائمة فيسقي الاراضي الزراعية المرتفعة التي تقع بينه وبين مجرى دجلة القديم ، كما كان « القاطول الاسفل » (نهر القائم) بصدريه الشتوي والصيفي ــ صدرا القائم والضم ــ عامرين ايضا تجري فيهما المياه طوال السنة فتروي كل المنطقة التي تمتد من جنوبي ملتقى القاطول الاعلى بالقاطول الاسفل حتى ذنائب النهروان قرب مدينة الكوت الحالية • وكان في الوقت نفسه « سد العظيم » في جبل حمرين يؤمن تحويل مياه نهر العظيم الى الانهر الفرعية القائمة على الجانبين والى بحيرة الشارع ، كما كان « سد ديالى » يحول مياه نهر ديالى الى الجداول الفرعية والى منخفضات الروز وعلى هذا كانت كل المنطقة الزراعية التي تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة بين جبل حمرين ونهر دجلة والتي تمتد من سامراء حتى الكوت مزدهرة ببساتينها ومزارعها وقراها ومدنها فتستمد مياهها من انهر النهروان وديالى والعظيم•وكانت هذه المنطقة مقسمة الى ثلاثة كور ، الكورة الاولى تشتمل على المنطقة التي تقع بين النهروان وضفة دجلة الشرقية والتي تمتد من سامراء حتى المدائن تضاف اليها اراضي العظيم الواقعة على الجانب الشرقي من النهروان وتسمى « استان شاذ هرمز » (يلاحظ من ذلك ان العرب احتفظوا بالاسماء الفارسية القديمة) ، وهذه تقسم الى سبعة طساسيج ، ثم الكورة الثانية التي تشتمل على المنطقة الواقعة على جانبي نهر ديالى شمالي مجرى النهروان ومن ضمنها اراضي مندلي الحالية وتسمى « أستان شاذ قباذ » ، وهذه تقسم الى ثمانية طساسيج • اما الكورة الثالثة فتشمل على منطقة النهروان بين المدائن والكوت ومن ضمنها اراضي بدرة وزرباطية الحالية ، وقد سماها ابن خرداذبة « استان بازيجان خسرو » على حين ان قدامة اطلق عليها اسم « استان ارندين كرد » مع ان الاثنين قد اتفقا في تدوين عدد طساسيج هذه الكورة وهي خمسة كما انهما اتفقا في نقل اسماء الطساسيج الخمسة هذه •

ويلاحظ ان التقسيمات الزراعية التي كان يعمل بها في ذلك الزمن تتألف من الكورة او الاستان (والكورة والاستان معنى واحد) وهي اكبر وحدة زراعية في القطر، فتنقسم الكورة الى رساتيق (جمع رستاق) وينقسم الرستاق الى طساسيج (جمع طسوج) وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى • والكورة اسم فارسي وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان، وهي الصقع الذي يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها • ويعني بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن فهو بمنزلة السواد وهو اخص من الكورة او الاستان• اما الطسوج فهو لفظة فارسية ايضا وهو اخص واقل من الرستاق وقد قسم سواد العراق على ستين طسوجا اضيف كل طسوج الى اسم (راجع مقدمة معجم ياقوت الحموي) •

مدينة بغداد الشرقية وانهارها

يرجع تاريخ تأسيس مدينة بغداد الشرقية الى عهد المنصور حين اتخذ ضفة دجلة الشرقية قبالة

مدينته المدورة التي على الجانب الغربي من دجلة موضعا يعسكر فيه الجيش ، وكان قد اعد لابنه قصرا هنا ايضا بمناسبة انتصاره ورجوعه من خراسان على راس الجيش، وقد اقيم جامع بالقرب من القصر ثم انشئت البساتين حوالي القصر وحفر نهر خاص لاروائها وقد سميت هذه المحلة بعد ان توسعت وانشئت فيها القطائع والدور باسم « الرصافة » وكانت تعرف باسم « عسكر » المهدي » في اول الامر • وامتد العمران في جهة « الرصافة » هذه حتى صار يعادل عمران مدينة المنصور التي على الجانب الغربي وقد ساواها في المساحة بعد ذلك • ويذكر اليعقوبي باسهاب القطائع المختلفة التي اقطعها المهدي لرجاله من الاراضي المحيطة بالرصافة وكانت هذه الاراضي في الشمال الشرقي وفي الجنوب وقد اصبحت اخيرا « محلة الشماسية » و « محلة المخرم » • (حول مدينة بغداد الغربية وانهارها انظر الفقرة ١٢ أ نهر عيسى ومدينة بغداد الغربية مدينة المنصور المدورة) •

وكان هناك فرعان رئيسيان من فروع النهروان اليمنى يغذيان شبكة الانهر التي كانت تتغلغل في قلب مدينة بغداد الشرقية ضمن حدود الطسوجين، «نهر بوق» و «كلواذى ونهر بين»، اولهما من الشمال يعرف باسم «نهر الخالص»، والاخر من الجنوب يسمى « نهر بين » (انظر مرتسم انهار مدينة بغداد الشرقية)•وكان « نهر الخالص » يتفرع من الجانب الايمن للنهروان في نقطة تقع في جوار قرية «باجسرى»، فيسير في الاتجاه الجنوبي بين النهروان ودجلة ثم ينصب في دجلة شمالي مدينة بغداد الشرقية فوق قرية « البردان »[1] بقليل ، وعلى هذا يمكن تعيين اتجاهه في نفس الاتجاه الذي يسير فيه « نهر الجاث » القديم و « نهر المشيرية » الحالي الواقع في ذنائب جدول الخالص الحديث • اما « نهر بين » فكان يتفرع من فوق « مدينة النهروان » بقليل وبعد ان تتفرع منه عدة فروع وتسقي الضياع الواقعة عليها يصب ماءه في دجلة عند « كلواذى » الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوبي مدينة بغداد بقليل • وهكذا كانت جميع انهار بغداد الشرقية تتفرع من هذين الفرعين الرئيسين « نهر الخالص » و « نهر بين » فتؤلف شبكة من الجداول فيها •

وقد وصف ابن سرابيون « نهر الخالص » فقال انه كبير تجري فيه السفن فيمر بين ضياع وقرى وبعد ان تتفرع منه انهار كثيرة يصب في دجلة اسفل الراشدية بفرسخين (حوالي عشرة كيلو مترات) شرقي دجلة • وان اهم الفروع التي كانت تتشعب منه هو الفرع المسمى «نهر الفضل»، وهذا يتفرع من ضفته اليسرى فيسير جنوبا حتى يصل الى دجلة فيصب فيها عند باب الشماسية في القسم الاعلى من بغداد الشرقية •

وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل عند باب الشماسية فرع يسمى « نهر المهدي » فيدخل هذا الفرع المدينة في الشارع المعروف باسم « شارع المهدي » متجها نحو الجنوب الشرقي ، وبعد ان يمر بقنطرة البردان ودار الروميين وسويقة نصر بن مالك يدخل الرصافة ويمر في المسجد

الجامع الى بستان حفص ويصب في بركة في جوف قصر الرصافة. وقد اشار اليعقوبي الى نهر المهدي هذا قال : « فاختط المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في الرصافة ، وحفر نهرا ياخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي » .

وكان يتفرع من « نهر الفضل » ايضا نهر يقال له « نهر الجعفري » او « نهر الجعفرية » ، وهذا يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل ايضا من نقطة تقع شمالي ماخذ نهر المهدي ، وبعد ان يمر بقرى وضياع ينتهي الى الاراضي التي في شمالي مدينة بغداد. وكان يحمل من الضفة اليمنى لنهر الجعفرية نهر يسمى « نهر السور » فيسير غربا مع سور بغداد وبعد ان يمر بباب خراسان وباب البردان يصب في نهر الفضل الذي يصب بباب الشماسية .

وكان يحمل من الضفة اليسرى لنهر المهدي فرع اوله في سويقة نصر يمر في وسط شارع باب خراسان الى ان يصب في نهر السور بباب خراسان (انظر المرتسم رقم ٣٩ انهار مدينة بغداد الشرقية).

اما « نهر بين » فان اهم فروعه هو الفرع المعروف باسم « نهر موسى » ، وكان هذا الفرع يتشعب من الضفة اليمنى لـ « نهر بين » في نقطة تقع شرقي قصر المعتضد المعروف بـ « الثريا » فيسير غربا حتى يصل الى « قصر الثريا » فيدخله ويدور فيه ويخرج منه ويصير الى موضع يقال له « مقسم الماء » فينقسم هناك الى ثلاثة انهار ، اولها ، الفرع الشمالي الغربي ، وهو اطولها، يبقى محتفظا باسم « نهر موسى » فتتشعب فروعه الكثيرة في « محلة المخرم » فيخترقها مع فروعه . وبعد ان يدور حول هذه المنطقة يدخل « بستان الزاهر » ويصب في دجلة اسفل البستان المذكور بقليل . ويمر « نهر موسى » هذا بـ « سوق الدواب » وبـ « دار البانوجة » وبـ « قصر المعتصم » ، كما انه يغذي الاحواض الثلاثة التي في هذه المنطقة ، وهي « الانصار » و « هيلانة » و « داود ». ويسمى الفرع الثاني الذي يتفرع من « المقسم » وهو الفرع الاوسط باسم « نهر المعلى » ، وهذا يسير غربا الى داخل المدينة ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بـ « الفردوس » ويدور حوله حتى يصب في دجلة مع القصر . ويمر النهر الثالث من « المقسم » الى باب العامة فيسير جنوبا ثم يدخل الى القصر المعروف بـ « الحسنى » فيدور فيه وينتهي الى دجلة تحت قصر المكتفي بالله المعروف بـ « قصر التاج » .

وكان يتفرع من «نهر بين» عدا «نهر موسى» فرع اخر يسمى « نهر علي » ، وهذا يتفرع من الضفة اليمنى لـ «نهر بين» في نقطة تقع فوق ماخذ «نهر موسى » بقليل فيمر بقرية الاثلة وبعد ان يسقي « طسوج نهر بوق » و « رستاق الافروطر» يصب في احد فروع الخالص ، والارجح انه يصب في فرع الجعفري الذي مر ذكره .

يتضح مما تقدم ان منطقة مدينة بغداد الشرقية كانت تروى من النهرين الرئيسيين ــ « نهر الخالص » و « نهر بين » المتفرعين من الضفة اليمنى لنهر النهروان الكبير ، فالمواضع



المرتسم رقم (٣٩) ــ انهر مدينة بغداد الشرقية

الشمالية كانت تسقى من فروع «نهر المهدي » و « الجعفري » و « السور » المتشعبة من « نهر الفضل » الذي هو احد فروع « نهر الخالص » ، اما المواضع الجنوبية فكانت تسقى من فروع « نهر موسى » الذي هو احد فروع « نهر بين » ، وهي الفروع الثلاثة المتشعبة من «مقسم الماء» .

قصور الخلفاء في مدينة بغداد الشرقية

اما العمارة المهمة التي انشئت في الجهة الشرقية لمدينة بغداد فيرجع معظمها الى العهد الاخير الذي يلي عهد عودة الخلفاء من سامراء ، ومن اهم القصور التي اشتهرت في هذا العهد « القصر الحسني » و « قصر الثريا » و « قصر الفردوس » و « قصر التاج » . وكان « القصر الحسني » قد انشيء في الاصل من قبل جعفر البرمكي جنوبي الرصافة واصبح في الاخير موضع دار الخلافة بعد انتقال دار الخلافة الى الجانب الشرقي من المدينة . وقد ذكر ياقوت ان القصر كان من احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه فاقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيرا لجميع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وبعد ان تولى المعتمد صار هذا القصر من احب البقاع اليه كان يتردد فيما بينه وبين سر من رأى فيقيم هنا تارة وهناك تارة اخرى حتى توفي

فيه سنة ٢٧٩ هـ وحمل الى سامراء فدفن فيها . ثم استولاه المعتضد بالله فاستضاف الى « القصر الحسني » ماجاوره فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا واقطع من البرية قطعة فعملها ميدانا عوضا من الميدان الذي ادخله في العمارة وابتنى على نحو ميلين منه في جهة الشرق الموضع الذي على « نهر موسى » والمعروف بـ « الثريا » ووصل بناء الثريا بالقصر الحسني وابتنى تحت القصر آزاجا من القصر الى الثريا تمشي جواريه فيها وحرمه وسراريه وما زال باقيا الى الغرق الاول الذي سار ببغداد فعفى اثره وكان ذلك في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣ م) حين انفجرت المسناة التي تحت « نهر القورج » وغمرت المياه ببغداد الشرقية جميعها . وقد ذكر المسعودي المؤرخ المعاصر : ان المعتضد انفق على قصره المعروف بالثريا اربع مائة الف دينار وكانت مساحة ارضه ثلاثة فراسخ وكان الازج الذي طوله ميلان المار ذكره معقودا يمر تحت الدور والشوارع التي اقيمت فيما بعد خارج قصور الخلفاء .

وقد شيد المعتضد « الفردوس » في جوار « القصر الحسني » في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر المعلى في دجلة ، وكان في بساتين هذا القصر بحيرة يأتيها الماء من فرع صغير لـ (نهر موسى) عند (المقسم) قرب (باب المخرم) . وقد ذكر ابن حمدون النديم ان المعتضد غرم على عمارة البحيرة ستين الف دينار وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته دريرة(*) . وزيادة على قصري (الفردوس) و (الثريا) وضع المعتضد اساسات (قصر التاج) المشهور في موضع يقع على نهر دجلة بالقرب من (القصر الحسني) وحين تم بناؤه وسمه الخلفاء المتعاقبون واصبح اهم مركز رسمي للخلفاء .

ب ـ نهر الاسحاقي

لما انشأ المعتصم مدينة « سر من رأى » في منطقة سامراء الحالية على الضفة الشرقية من نهر دجلة واتسعت ابنيتها اتساعها السريع كانت مياه الشرب تحمل من نهر دجلة الى هذه المدينة على البغال وعلى الابل ، ونظرا لان الاراضي التي تقع فيها المدينة مرتفعة بالنسبة الى مستوى النهر فلم يكن هناك مجال لانشاء البساتين والمزارع بصورة واسعة حول المدينة ، لان الوسائط لرفع المياه لم تكن متوفرة بمقياس واسع في ذلك الزمن ، ولما كانت الاراضي القائمة على الضفة الغربية من نهر دجلة منخفضة بالنسبة الى مستوى اراضي الضفة الشرقية التي تقع فيها مدينة «سر من رأى» فقد انتقل بعض السكان الى الجانب الغربي من دجلة وحفروا هناك جداول سيحية انشئت عليها الجنائن والبساتين والمزارع والقرى ، و كانت هذه الجداول تتفرع من نهر الاسحاقي الذي

(*) كان يقع هذا القصر في القسم الشمالي من محلة المخرم على ضفة «نهر موسى» جنوبي « باب خراسان » وقد اقام المعتصم في هذا القصر من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢١ هـ ، اي قبل انتقاله من بغداد الى سامراء والظاهر انه تهدم بعد هذا التاريخ بمدة قصيرة بدليل انه لم يرد له ذكر عند اي مؤرخ جاء بعد سرابيون .

حفره المعتصم لارواء الاراضـي الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة ارواءا سيحيا . ونهر الاسحاقي هذا يستمد مياهه من نهر دجلة في نقطة تقع جنوب قرية تكريت بقليل فيجري من امام مدينة « سر من رأى » موازيا لنهر دجلة جنوبا.لقد ثبت من تحقيقاتنا ان منشأ هذا النهر يرجع الى عصور سحيقة في التاريخ وانه كان بالاصـل نهرا واسعا يتفرع من الضفة اليمنى من نهر دجلة في نقطة تقع بجوار تكريت فيمتد الىاقصى الجنوب حتى ينتهي الى منخفض (عقرقوف) وكان يروي القسم الاعظم من اراضي الجزيرة التـي تمتد بين الفرات ودجلة ابتداءا من سامراء حتـى منخفض عقرقوف الواقع غربي بغداد ، على ان المشروع اهمل فاندرس وبقي متروكا مدة من الزمن حتى اذا ماجـاء العهد العباسي واقام بنـو العباس سـامراء عاصمة لملكهم قـام المعتصم باحياء القسم الاعلى منه ، وهو القسم الذي يمتد بين تكريت والحد الجنوبي لمدينة « سر من رأى » لذلك فقد يصح لنا ان نقول بانه مر على مشروع الاسحاقي دوران، الاول هو الدور القديم الذي كان فيه نهر الاسحاقي مشروع ري واسع يمتد في اراضي الجزيرة من تكريت حتـى عقرقوف ، والثاني هو الدور العباسي ، الذي اعيد فيه انشاء القسم الاعلى من النهر لاستغلاله في احداث البساتين والمزارع مقابل مدينة « سر من رأى » في جهة دجلة الغربية ، ولا شك في ان تسمية «الاسحاقي» ترجع الى الدور الثاني ، أي الدور العباسي ، وقد تولى أعمال هذا المشروع اسحاق بـن ابراهيم فسمي باسمه، وقد ورد لهذا النهر ذكر في جغرافية علي بن سعيد المغربي ، قال : « وفي جنوب تكريت وشرقيها النهر الاسحاقي حفره في ايام المتوكل اسحق بن ابراهيم صاحب شرطته . وهو أول حد سواد العراق ومنه تبدأ الاشجار وخروج مياه دجلة التي تسيح في ارض العراق » . والمعروف انه في عهد المعتصم استحدث هذا النهر ويلاحظ ان « وادي اسحق بن ابراهيم » الواقع في الجانب الشرقي سمي بأسمه أيضا لوجود قطيعته بالقرب منه .

وكان نهر الاسحاقي محور العمران الذي أسس في سامراء العباسية على الضفة الغربية من نهـر دجلة فوصف اليعقوبي ذلـك في كتابه « البلدان » قال ما نصه :

« واتسع الناس في البناء بسر من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنو المنازل الواسعة ، الا ان شربهم جميعا من دجلة مما يحمل في الروايا على البغال وعلى الابل لان آبارهـم بعيدة الرشـاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء ولكن دجلـة قريبة والروايا كثيرة . ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء فـي الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب «سر من رأى» عقد جسرا الى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هنالك العمارات والبساتين والاجنة وحفر الانهار من دجلة وصير الى كل قائد عمارة ناحية من النواحي.وحمل النخيل من بغداد والبصرة وسائر السواد وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبـل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة ... وصلح النخل ونبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان والبقل وزرع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة ألوف

السنين فزكا كل ما غرس بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والايتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيف والعربات المحدثة وهي خمس قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والاجنة والبساتين وخراج الزرع أربع مائة الف دينار في السنة » • وقد أورد ابن المعتز في ديوان شعره ذكر الجسر والقرى الخمس المشار اليها في وصف اليعقوبي قال :

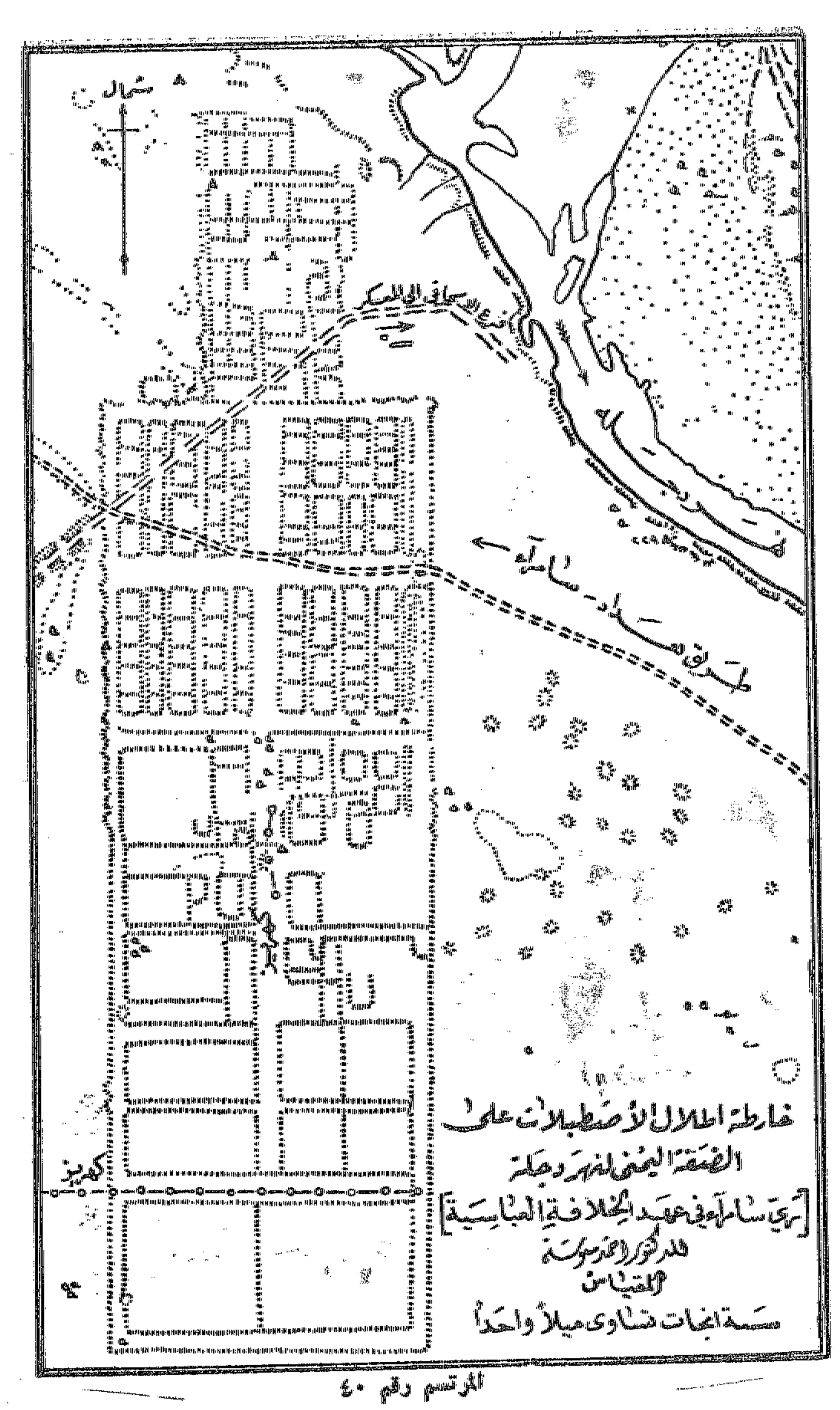
سقى الاله سر من رأى القطر   والكرخ والخمس والقرى والجسر

ومن أهم العمارات على نهر الاسحاقي التي لاتزال اثارها شاخصة، «قصر الحويصلات» الواقع على الضفة اليسرى من النهر و « قصر العاشق » على ضفته اليمنى وقبة الصليبية على ضفته اليمنى ايضا •

وكان نهر الاسحاقي يفضي الى معسكر الاصطبلات وهو المعسكر الذي أقيم في الجانب الغربي من « سر من رأى » على بعد حوالي عشرة كيلو مترات من جنوب سامراء الحديثة• ويحيط بهذا المعسكر سور خارجي طويل يبدأ في الشمال من حافة نهر دجلة الغربية فيمتد الى مسافة ستة وعشرين كيلو مترا غربي المعسكر ، ثم ينتهي جنوبا الى حافة نهر دجلة الغربية ايضا• وكان هذا السور محصنا بعدة ابراج أنشئت في المنعطفات وفي المداخل الرئيسية للمعسكر • اما مساحة أرض المعسكر بما فيها مساحة الثكنات التي داخل السور فتبلغ ثمانية وخمسين كيلومترا مربعا (حوالي ٢٤ الف مشارة) •

وكان نهر الاسحاقي عدا احاطته سور معسكر الاصطبلات بحاجز مائي ، يمون المعسكر بالمياه ولتحقيق هذا الغرض كانت هناك ثلاثة فروع رئيسية تتفرع من ضفته اليسرى فتخترق المعسكر ثم يصب بعضها في نهر دجلة والبعض الاخر في نهر دجيل الواقع في الجنوب •

ومما يلفت النظر ان قسما كبيرا من أرض المعسكر كان يستغل لاحداث مراع اصطناعية لجياد الجيش العباسي التي كان يقدر عددها بـ ١٦ الف حصان • واما القسم المبني ضمن السور الداخلي فكان معدا لسكنى الجنود والضباط ، ولاتزال آثاره تعرف اليوم بأسم الاصطبلات • وكان بعض أرض المعسكر وخاصة القسم الجنوبي الشرقي الذي يشكل اوسع بقعة داخل المعسكر يغمر بالمياه من فروع نهر الاسحاقي المار ذكرها فيكون بذلك المرعى المطلوب • وكانت هذه الطريقة متبعة في القطر العراقي منذ اقدم الازمنة، وقد استمر استعمالها في المقاطعات الواسعة حتى شرع في تنظيم الري وسن قانون الري الذي يمنع احداث مثل هذه المراعي في الاراضي الزراعية لما فيها من اسراف بالمياه هذا عدا خطر تراكم الاملاح في الارض وضياع خصوبتها • واذا تصورنا وضع الجياد وهي ترعى رعي الاغنام في داخل سور المعسكر اتضحت لنا ضرورة تحقيق مشروع هذا النهر لتأمين مياه الشرب الى تلك الجياد فلا يضطر الجنود الى نقل مياه الشرب اليها من نهر دجلة • (انظر المرتسم رقم ٤٠) •



المرتسم رقم ٤٠

خارطة اطلال الاصطبلات على الضفة اليمنى لنهر دجلة

. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد هو ان مشروع الاسحاقي يجـري احيــاءوه الان ، ويشتمل هذا المشروع الجديد على جدول واسع يأخذ من مقدم سدة سامراء الحديثة ويمتد بمحاذاة جدول الاسحاقي القديم وذلك لسقي الاراضي التي كان يرويها هذا الجدول قديما وهي تقع جنوب سامراء وتمتد من بلد في الشمال حتى ضواحي الكاظمية في الجنوب . وتقدر مساحة هذه الاراضي بـ ٣٣٠ ألف مشارة اما كلفة هذا المشروع فتقدر بأكثر من سبعة ملايين دينار . وقد سبق ان تم بناء ناظم في صدر هذا الجدول في جوار سدة سامراء كملحق لها وسوف تستخدم هذه السدة في تنظيم ميــاه الجدول من مصدره وتكون سدة سامراء جزءا من مشروع الثرثار المعروف ، وقد سبق ان بنيت لرفع مستوى مياه نهر دجلة في موسم الفيضان وتحويلها الى منخفض الثرثار وذلك لدرء اخطار الفيضان عن مدينة بغداد والمزارع والقرى الواقعة على نهر دجلة جنوبا . وقد صمم مشروع جدول الاسحاقي الجديد على اساس امتداد الجدول شرقا فيعبر نهري دجلة وديالى بواسطة سيفونين ينشآن تحت مجرى النهرين المذكورين لارواء اراضي النهروان السفلى الواقعة على الضفة الشرقية من نهر ديالى وتقدر مساحة هــذه الاراضي بأكثر من نصف مليون مشارة .

١٤ ـ اراضي السواد في العصر العباسي

والذي لابد لنا من الاشــارة اليــه هو ان الوصف الذي المنا اليه عن مشروعات الــري القديمة في مختلف أدوار تاريخ العراق يؤدي بنا الى نتيجة واحدة ، وهي ان منشآت الري العاطلة التي نشاهد آثارها منبثة في مختلف أنحاء العراق لم تكن كلها استعملت في وقت واحد ، لذلك فان تقدير مساحات الاراضي التي كانت تزرع في اي وقت من الاوقات لا يعــدو الحدس والتخمين . يقول السير ويليام ويلكوكس في ذلك : « يجب ان لا يغرب عن البال انه لم يحدث قط ان كانت جميع اراضي العراق منتظمة الري في اي عصر من العصور . فقد كان مركز الري الرئيسي بــادىء الامر في المناطق السفلى من الرافدين بين نفر واور الكلدان ، ثم انتقل منها الى البقعة الكائنــة بين سبارة وبابل ، وفي زمن الفرس أصبح مركز الري في طيسفون . وكانت كل من البصــرة وواسط والكوفة في جنوب الدلتا من اهم عواصم العراق ، وبعدها انتقل مركز العمران الى بغداد في زمن الخلفاء » . ويضيف مدير الري العام السابق المستر آلارد الى ماتقدم قائلا : « ويجب ان تتذكر دائما بان اعمال الري القديمة التي نشاهدها اليوم يتصل تأريخها بعدة آلاف من السنين . هذا وان الغرين كثيرا مايطغــي على الجدول غير المنتظم فيطمره ، لذلك لم تعمر الجداول القديمة طويلا ، وتوجد في بعض الاحيان بقايا عدد من الجداول ، كل منها ممتد بجنب الآخر وكلها عاطلة بأستثناء واحد منها الامر الذي يدل على ان عددا محدودا فقط من مجموع هذه الجداول كان عامرا في عصر من العصور » .

اما ما يتعلق بأراضي العراق الزراعية فيقسم الجغرافيون العرب بلاد مابين النهرين الى منطقتين ، المنطقة الجنوبية ويسمونها « العراق » والمنطقة الشمالية ويسمونها « الجزيرة » . الا ان هــذا

التقسيم جاء بشكل عام لا يتضمن معلومات كافية تمكننا من تعيين حدود كل منهما بدقة تامة • ان مدلول العراق غير واضح تماما ولكنه يكاد يكون مرادفا لمصطلح السواد ، وهذا يشير في الحقيقة الى الاراضي الغرينية « اراضي الدلتا » التي تكون بصورة عامة من اراضي العـراق الزراعية التي تعتمد على الري • ويمكن تحديد منطقة السواد استنادا الى أوصاف الجغرافيين العرب بأنها تمتد من العلث وحربي شمالا الى الخليج العربي جنوبا ، ومن حلوان شرقا الى العذيب بجوار القادسية غربا • اما الجزيرة فيفهـم من وصف مؤلف (حـدود العالم) (ص ١٤٠) ان الجزيرة محوطة بالدجلة والفرات وانها لذلك تدعى « الجزيرة » • وهذا الوصف جاء بشكل عام أيضا لانه توجد الى شرق نهر دجلة والى غرب الفرات مدن وقرى تعتبر من الجزيـرة وان كانت وراء النهريـن ، فيحـدد الاصطخري (ص٧١) وابن حوقل (ص٢٠٨ــ٢٠٩) حدود الجزيرة بأنها تمتد من الجنوب من خط يمر بالانبار الى تكريت ، ثم يصعد شمالا الى السن والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر وآمد ثم يتجه غربا الى سميساط ويستمر حتى يصل الفرات الذي يكون الحد الغربي للجزيرة • ويضع ابن رستة (ص١٠٦ــ١٠٧) كلا من سميساط وملطية في ديار ربيعة ، اي في القسم الشمالي من الجزيرة • (٣٢)

أ ــ ارض السواد

يراد بالسواد أرض العراق التي افتتحهـا المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقـد سميت بذلك لسوادها بالزروع والنخيل والاشجار (ياقوت ٣ : ١٥٩) ويقسم ابن خرداذبة مناطق السواد الى ثلاث مناطق ري وهي : ــ

أ ــ المنطقة الاولى ــ وتقع شرق نهر دجلة وكانت تروى بمياه دجلة والنهروان وتمتد من الدور في الشمال الى نهاية مادرايا في الجنوب (ابن خرداذبة ٦ــ٧) •

ب ــ المنطقة الثانية ــ وترويها مياه دجلة والفـرات ، وتتـألف من الاراضـي الواقعـة بين مادرايا في الشمال والبطيحة في الغرب والخليج في الجنوب •

ج ــ المنطقة الثالثة ــ وهي أوسع المناطق الثلاث واكثرها انتاجا وتقع بين النهرين بين الانبار على الفرات والدور على دجلة في الشمال وبين البطيحة في الجنوب ، وتدخل من ضمن هذه المنطقة انهر الفرات الاربع (انهر عيسى وصرصر والملك وكوثى) • (ابن خرداذبة ٨ــ١٤) (٣٣) •

ب ــ ملكية الاراضي

ولما كان العراق قطرا زراعيا بالدرجة الاولى وان اقتصادياته تعتمد علـى الزراعة فقد كانت الارض اهم حقل للانتاج ، فلما فتح العرب العراق اعتبروا الارض المستولى عليها صلحا او عنوة ملكا

---

(٣٢) الدكتور عبدالعزيز الدوري « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » ص ٥ــ٧ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

مشتركا للامـة الاسلامية ، اذ اعتبـروا أرض السواد فيء المسلمين بمثابة وقف لهم، وان زراعها بمنزلة مزارعين يدفعون الخراج ايجارا للارض التي يزرعونها • ومع ذلك فقد وجدت في العراق أنواع مختلفة من الملكية ، دون ان تكون هناك خطوط واضـحة تميز بينها • ويمكن تصـنيف الارض في العصر العباسي بصورة عامة الى اربعة أصناف رئيسية •

١ ــ الضياع السلطانية ــ وهذه تعود للخليفة أو للامير البويهي ، كانت منتشرة في مختلف انحاء العـراق ، في السواد وبجوار بغداد والبصرة وواسط ، وفي الاراضي المستصلحة من البطيحة، وحول الموصل ، وكذلك في الاهوار وايران وقد أنشئت عدة دواوين لادارة الضياع السلطانية هذه • ثم تقلصت ضياع الخلافة نتيجـة افلاس الخزينة وشغب الجند للحصول علـى الرواتب وبيع مساحات كبيرة منها في الربع الاول من القرن الرابع الهجري •

٢ ــ الاقطاعات ــ وهذه على أنواع منها الاقطاعات المدنية التي تمنح للموظفـين بدل الرواتب واقطاعات الوزارة والاقطاعات الخاصة التي كانت تمنح الى افراد لهم خدمات عامة او قابليات خاصة كالشعراء وغيرهم، ويدخل في هذا الصنف اقطاع الارض المتروكة لغرض احيائها • ومنها اقطاعات الخليفة، فلما استولى معز الدولة على ضياع الخلافة خصص للخليفة اقطاعا خاصا به ، وكان للخليفة كاتب يقوم بادارة الاقطاع • ومنها الاقطاعات العسكرية ، ففي القـرن الرابع الهجري مر الاقطاع بمرحلة عسكرية اذ ان الاراضي وزعت على الجند على نطاق واسع •

٣ ــ اراضي الملك ــ وهذه تشمل ارض الموات التي تم احياؤها في العصر الاسلامي والاراضي التي استصلحت من البطيحة وكانت تسمى الجوامد ، كما تشمل اراضـي الخزينة وضياع الخلافة المباعـة •

٤ ــ اراضي الوقف ــ وتدخل في هـذا الصنف مجموعة هامـة من الاراضي ويقصـد عـادة بالوقف الاراضي التي يخصصها المسلمون لاغراض دينية ، فيكون واردها للبلاد المقدسة (مكة والمدينة) او للفقراء او لليتامى ، او لبناء المساجد أو للمنافع العامة الاخرى[٣٤] •

ج ــ الضرائب :

واهم الضرائب التي كانت تجبى من العراق هو الخراج الموضوع على رقاب الارض ويؤخذ من المسلمين وغير المسلمين • واشترط لتاديـة الخراج اوقات مضروبة الاجل يقبل فيها الدواب والمتاع وغير ذلك ، وهو يؤخذ بالقيمة خلاف الجزية[٣٥] التي تؤخذ دفعة واحدة « علـى الرجال

---

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٤ــ٣٦

(٣٥) الجزية ، ما يؤخذ من أهل الذمة على الرؤوس لانها تجزي عنهم معاملة الحربيين وتكفيهم مؤونة الجهاد كالمسلمين وهي تؤخذ منهم دفعـة واحـدة • وتسقط الجزيـة عن الفـرد بمجـرد دخوله في الاسـلام •

الاصحاء فلم توضع على امرأة او صبي ولا مجنون او عبـد ولا سابل او سائـل ولا راهب او شيخ او زمن الا اذا ايسروا » .

وكان الخراج يجبى بطريقة من الطرق الثلاث التالية : ـ

١ ـ بفرضه على وحدة المساحة من الاراضي الزراعية كما فعل عمر بن الخطاب في السواد .

٢ ـ بفرضه على وحـدة المساحة من الارض المزروعـة .

٣ ـ تؤخذ نسبة معينة من الحاصـل اي بالمقاسـمة .

« اما تقدير الخراج، فيترك الى رأي الامام،بعد ان تؤخذ قابلية الارض بعين الاعتبار ويتوقف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع الحاصل ونوع السقي طبيعيا او اصطناعيا ويضيف بعضهم الى ذلك البعد عن الاسواق . ويراعى في وضع الضريبة (العدل فيما بين اهلها واهل الفيء من غير زيادة تجحف باهل الخراج ، ولا نقصان يضر باهل الفيء) . ويلزم معاملة اهل الخراج باللطـف وارجائهم في حالة عجزهم عن الدفع »[٣٦] .

وهناك تباين بين آراء الفقهاء في الضرائب وبين نظام الضرائب في الواقع ، فالروايات التاريخية تدل على اختلاف نظام الضرائب خلال الاربعين سنة الاولى للهجرة وعلى عدم رسوخها ولم تعين اصول ضريبة الخراج حتى خلافـة عمر الثاني (٩٩ـ١٠١هـ/٧١٧ـ٧٢٠م)[٣٧] . وفـي زمن المأمون حدد مقدار الخراج في السواد بـ ٢/٥ من الحاصل ، الا ان هـذه النسبة اغفلت في بعض الاحيان[٣٨] . وكانت الاراضي في سواد البصرة عشرية ، اي تدفع عشر الحاصل ، وهـذه هـي الاراضي التي فتحت عنوة وحربا وقسمت بـين الفاتحين او بقيت ملكا في عهد اصحابها الذين دخلوا في الاسلام طوعا فكانت تربط بضريبـة توازي ١٠٪ من غلتها . ويعتبر المقدسي الاراضي المحيطة بالكوفة عشرية ، الا ان الاصطخري والصابي يعتبرانها خراجية، ورايهما اقرب للقبول. وكانت اراضي الوقوف عشرية ايضا ... ومع انه يفترض شرعا ان تدفع الاراضي العشرية عشـر حاصلها الا ان الواقـع كان يختلف احيانا عن النظريـات .

وكان الخراج في زمن عمر بن الخطاب (رض) يجبى على وحدة المساحة من الارض الزراعية ، وقد تم تعيينه حين ترك ارض العراق لاهلها فجعل على جريب النخل[٣٩] عشرة دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين،فبلغ الخراج مائة مليون درهم (فجر الاسلام ص١٨٠

(٣٦) الدوري « تاريخ العراق الاقتصادي » ص ١٨٣

(٣٧) المرجع السابق ص ١٨١

(٣٨) المرجع السابق ، ص ١٨٨

(٣٩) الجريب قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعا في ستين ، اي ٣٦٠٠ ذراع مربعة ، ولما كانت الذراع مساوية ٦٢ سنتمترا فتعتبر مساحة الجريب الواحد مساوية ١٣٨٤ مترا مربعا ، اي حوالي نصف مشارة عراقية .

عن الطبري) • وقد حدد المهدي بن المنصور (٧٧٥ــ٧٨٥ م) حصة بيت المال من المقاسمة فجعلها بالنصف في الارض التي تسقى سيحا وبالثلث في الارض التي تسقى بالدلاء وبالربع في الارض التي تسقى بالدواليب وابقى خراج النخل والكروم والشجر على المساحة • ولما كان اكثر ارض السواد يسقى سيحا فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريبا ويعد ذلك خراجا ثقيلا بالنسبة الى الظروف الحاضرة التي لا يزيد خراج الارض فيها عن خمس غلتها او العشر فقط(٤٠) •

وعمل علي بن عيسى جريدة مفصلة بواردات الدولة العباسية وخاصة العراق لسنة ٣٠٦هـ (٩١٨ م) وكان وارد مختلف مناطق العراق من العشر والخراج بالدرجة الاولى في هذه الجريدة كما ياتي :ــ

السواد	١٫٥٦٧٫٨٧٤	دينارا
الجزيرة	٩٥٨٫٠٣٧	دينارا
	٢٫٥٢٥٫٩١١	

يضاف الى ذلك وارد الضياع السلطانية الواسعة، فقد بلغ واردها بالاضافة الى وارد الاوقاف ١٫٧٩٨٫٠١٥ دينارا في السنة(٤١) • وقد ذكر ابن حوقل ان وارد العراق سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨ م بلغ ٤٢ مليون درهم (اي ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار)(٤٢) •

د ــ مساحة ارض السواد :

لقد ذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) ان مجموع مساحة اراضي سواد العراق التي كانت خاضعة للخراج في زمن عمر بن الخطاب (١٣ ــ ٢٣هـ/٦٣٤ ــ ٦٤٤م) بلغت حوالي ٣٦ مليون جريب (الجريب يوازي حوالي ثلث الايكر) اي ما يساوي حوالي الاثنى عشر مليون ايكر (حوالي خمسين الف كيلومتر مربع او عشرين مليون مشارة) • والمساحة هذه تساوي زهاء ثلثي مساحة اراضي الدلتا الحالية القابلة للزراعة والتي تقدر بحوالي ٨٠/٠٠٠ كيلو متر مربع او ٣٢ مليون مشارة • ولما كانت جباية الخراج قائمة في ذلك الوقت على اساس مساحة الارض باعتبار الجريب كوحدة قياسية مهما يكن حاله من الجدب والخصب ، اي انه كان يفرض على مساحة معلومة من الارض الزراعية ، واذا لاحظنا ان طريقة الزراعة في ذلك الوقت كان على نحو ماهو متبع الان في زراعة النير والنير ، اي في زراعة نصف الارض في السنة الاولى وترك النصف الاخر بائرا لزرعه في السنة التالية ، اتضح لنا بان من المحتمل ان مساحة الاراضي التي كانت تزرع فعلا في السنة الواحدة كانت تقرب من نصف الاراضي الخاضعة للخراج ، اي زهاء عشرة ملايين مشارة

(٤٠) « دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ » ص ٣٨٩
(٤١) الدوري « تاريخ العراق الاقتصادي » ، ص١٩١ ، ١٩٣ــ١٩٥
(٤٢) يساوي آنئذ كل ١٥ درهما دينارا واحدا .

ولعلها وصلت الى اكثر من ذلك في الازمنة التي سبقت فيضان سنة ٦٢٧/٦٢٨ • ويعتقد السير ويليام ويلكوكس بانه مامن عهد من العهود القديمة بلغت فيه مساحة الاراضي المزروعة في العام الواحد اكثر من ثمانية او عشرة ملايين مشارة • ولما كان خراج السواد في ايام عمر ١٢٠ مليون من الدراهم كما ذكره المؤرخون فبذلك يكون معدل ماكان يؤخذ على الجريب الواحد من الارض زهاء ثلاثة دراهم على اساس ان مساحة الارض الخاضعة للخراج تبلغ ٣٦ مليون جريب كما تقدم •

١٥ ــ ارض السواد في عهد الانحطاط

ولسؤ الطالع ان العصر الذهبي الذي شهدته البلاد في القرون الثلاثة الاولى من العهد العربي لم يدم اذ بدأ التفسخ والوهن يدبان في جسم المملكة العباسية ، فظهر تاثيرهما في اواخر القرن الثالث للهجرة ، وذلك نتيجة تقلص نفوذ الخلفاء وسيطرتهم على شؤون المملكة ، الامر الذي ادى الى انحطاط الري في القطر كلـه • وكان هذا التقهقر سريعا في تاثيره على قابلية الانتاج في ارض السواد فهبط الى الثلث في ظرف مائتي سنة • ويرينا الجدول الاتي تدرج ذلك الهبوط •

في عهد عمر بن الخطاب (١٣ ــ ٢٣هـ/٦٣٤ ــ ٦٤٤ م)	١٢٠/٠٠٠/٠٠٠
في زمن عبيدالله بن زياد (٦٢هـ/٦٨١ م •	١٣٥/٠٠٠/٠٠٠
في ايام الحجاج بن يوسف (٨٥هـ/٧٠٤م)	١٨٨/٠٠٠/٠٠٠
في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ/٧١٧ ــ ٧٢٠ م)	١٢٠/٠٠٠/٠٠٠
في ايام المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ /٨٣٣ــ٨٤٢ م)	١١٤/٤٥٧/٦٥٠
في زمن المستعين (٢٤٨ ــ ٢٥١ هـ / ٨٦٢ــ٨٦٦ م)	٨٤/٣٠٩/٣٤٠
في زمن المقتدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ــ ٩٣٢ م)	٤٩/٧٢٦/٢٣٥

آ ــ انهيار سد ديالى :

ان اول حادث وقع في هذا الدور هو انهيار السد القائم على نهر ديالى، وهو السد الذي كانت تحول من امامه مياه فيضان نهر ديالى الى منخفضات مريجة ومنها الى دجلة جنوب مدينة الكوت الحالية عن طريق هور الشويجة (انظر ماتقدم الفقرة ١٢ من هذا الفصل) • وقد وقع هذا الحادث الخطير حوالي السنة ٣٠٠ هجرية فادى ذلك الى اختراق مجرى نهر ديالى لجدول النهروان واحتلال هذا المجرى المسمى (ديالى) الذي كان يتفرع من الضفة اليمنى للنهروان ويصب في دجلة جنوب بغداد بقليل فكان لابد من القيام بمشروع لايصال المياه الى النهروان الاسفل بعد اختراق نهر ديالـى للنهروان لانقطاع صلة الاخير بالقواطيل ، فأنشأوا سدا على مجرى ديالى الجديد وحولوا مياه نهر ديالى من امامه الى القسم الاسفل من النهروان•وهكذا فقد اصبح النهروان الذي يمتد بين ديالى والكوت يعتمد في ايراده المائي على نهر ديالى (تامرا) بعد ان كان يستمد مياهه من دجلة بطريقة القواطيل ، كما انه اصبح دخول مياه ديالى الى النهروان الاسفل يعتمد على صمود السد الذي اقيم على نهر ديالـى •

ب ـ انهيار سدي العظيم :

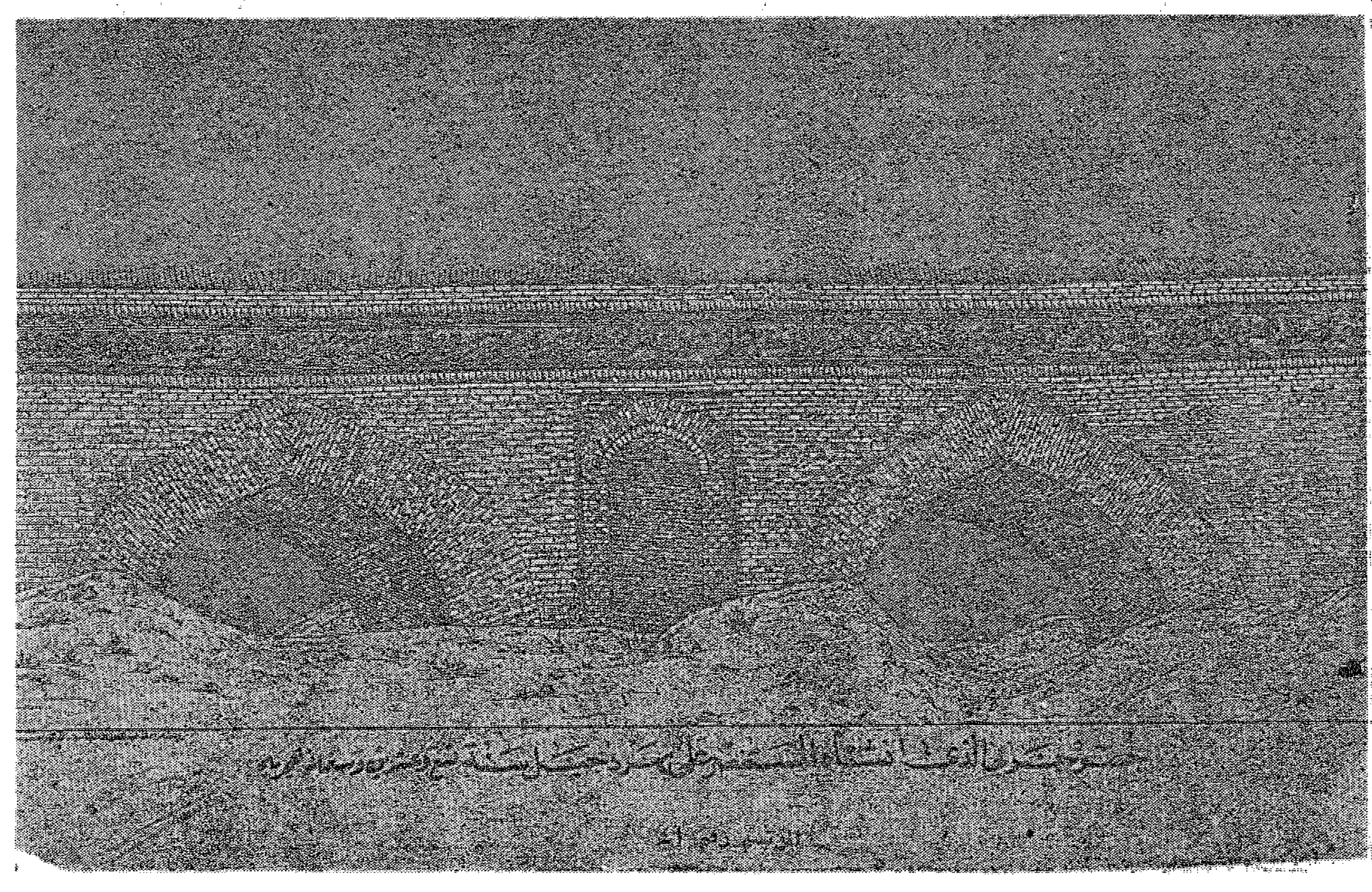
وكان مصير السد المقام على نهـر العظيم لتحويل مياهه الى بحيرة الشارع ومنها الى جدول النهروان نفس مصير سد ديالى فانهار سد العظيم واخترق مجراه النهروان وصار يصب في دجلة جنوب سامراء فانشىء سد ثان اسفل الاصلي ولكن هذا السد الثاني انهار بدوره ايضا (انظـر ما تقدم في الفقرة ١٢ من هذا الفصل) • وقد كان انهيار سد العظيم نذير الموت المحتم لمنطقة دجلة باسرها ، اذ جفت منطقة النهروان باسرها بعد ان اخترقته مياه نهر العظيم من الشمال ومياه نهـر ديالى من الجنوب ، وقد تم كل هـذا في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، فقبر بذلك مشروع النهروان نهائيا وبقي مقبورا منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا •

ج ـ تحول نهر دجلة في القسم الممتد بين سامراء وبغـداد :

وقد تلا هذا الحادث حـادث آخر كان من الخطورة بحيث قضى على مشاريـع منطقة ري سامراء كلها قضاء مبرما ، واعني بذلك تحول مجرى دجلة في نقطة جنوب سد نمرود مباشـرة (انظر ما تقدم عن سد نمـرود في الفقرة ٧ من الفصل التاسع) من عقيقه الغربي الذي كان يسير في اتجاه العلث والحظيرة وعكبرا واوانا ومسكن الى المجرى الشرقي الحالي وهو التحول الذي ادى الى هبوط مستوى مياه دجلة في مجراه الشرقي الجديد حوالي تسعة امتار • وهكذا تمـزق النهروان فانقطعت المياه عن صدره الواقع في جوار سامراء كما انقطعت المياه عن نهر الاسحاقي في الجانب الغربي من النهر ، وتشير الاخبار الى ان نهر دجلة قد تحول نهائيا الـى المجرى الشرقي الحالي في عهد المستنصر بالله (٦٢٣ـ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ـ١٢٤٢ م) •

د ـ احياء نهر دجيل القديم :

وكان طبيعيا ان يبذل رجال الحكم جهودهم لمعالجة الوضع الخطير الذي تركته حادثة تحول مجرى نهر دجلة ، لان نتائج التحول المذكور لم تقتصر على موت منطقة النهروان حسب بل شملت جدب المنطقة الواقعة على مجرى دجلة القديم برمتها • وقد عولج الوضع باعادة تنظيم مجرى نهر دجلة القديم لايصال المياه الى هذه المنطقة بعد تحول مجرى دجلة عنها ، وصار يعرف هذا المجرى باسم نهر دجيل فقام المستنصر بتوسيع هذا النهر وأنشا (سنة ٦٢٩هـ ـ ١٢٣١م) قنطرة عليه وهي القنطرة المشهورة المعروفة اليوم باسم (جسر حربي) ، كما أنه حفر جدولا يأخذ من نهر دجيل المذكور وينتهي الى بساتين بلد والحظيرة في الجهة الشرقية من دجيل ، وهو الجدول الذي سمي باسمه (نهر المستنصر) فيسير في بعض اقسامه في وسط عقيق دجلة الغربي المندرس ويرجع نهـر دجيـل الى عهـد قديـم ، وكـان صـدره انـذاك يتفـرع من الضفـة اليمنى من نهـر دجلـة من امـام سـد نمـرود ويمتـد حتى مدينـة بغـداد جنوبـا ، وكـان يـروي المنطقة الواقعة على الضفة الغربية من مجرى دجلة الغربي القديم كله (انظر المرتسم رقم ٤١) •



هـ ـ تحول نهر دجلة في القسم الجنوبي :

ولم يقتصر التحول الذي حدث في نهر دجلةعلى قسمه الاعلى الواقع شمال بغداد بل شمل القسم الاسفل منه جنوبا ايضا ، اذ تدلنا الوقائعالتاريخية على ان مجرى دجلة الرئيسي الذي كان يسير في الاتجاه الغربي نحو شط الغراف الحالي الذي اقيمت عليه مدينة واسط تحول الىالاتجاه الشرقي الحالي نحو العمارة والقرنة ، أي انه رجعالى المجرى الشرقي الذي كان يسير فيه زمنالفرس وكان رجوعه هذا قد حدث بصورة تدريجية ، فهنالك ما يدل على ان معظم مياه النهر كانت حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تجري في اتجاه شط الغراف ثم توزعت في سنة ١٥٧٥ بين المجريين الشرقي والغربي بصورة متساوية ولم تتحول مياه النهر كلها الى المجرى الشرقي فياتجاه العمارة الا بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي •

ويلاحظ هنا انه بينما كانت قناطر الخيزرانقد انشئت على صدر شط الغراف فيصدر الاسلام لتحويل بعض نهر دجلة الى المجرى الشرقي في اتجاه بلدة العمارة (انظر الفقرة ٥ منهذا الفصل) قد انعكس الوضع الان حيث أصبح هذا الوضعالجديد يقضي بوجوب انشاء سد على صدر الفرع الشرقي الذي يتجه صوب بلدة العمارة بغية تحويل بعض مياه النهر الى الفرع الغربي (شط الغراف) الذي انحسرت عنه المياه • وهذا هو نفس المشروع الذي انتهت الحكومة العراقية من اقامته سنة ١٩٣٩ والمعروف بمشروع سدة الكوتعلى هيئة بناء عصري حديث (انظر : « دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ » ص ٧٠٤) •

و ـ تحول مجرى نهر الفرات الى جهة بابل :

وقد طرأ ايضا تحول في مجرى الفرات ، فهنالك ما يدل على ان مجرى نهر سورا أي مجرى فرع بابل اخذ يتوسع تدريجيا في اواخر العهد العباسي على حساب مجرى الكوفة الذي كانت معظم مياه الفرات تجري فيه • وأول من نوه بذلك سهراب في اوائل القرن العاشر الميلادي فقال ان الفرات بعد ان يجاوز نهر كوثى بستة فراسخ يقسم قسمينفيمر الفرات الى قنطرة الكوفة «ويمر القسم الاخر نهرا عظيما اعظم من الفرات واعرضوهو النهر الذي يقال له سورا الاعلى » • وقد أيد ذلك ياقوت فقال ان نهر سورا هو اكبر أنهر الفرات ومن ضمنها نهر الكوفة • يتضح مما تقدم ان الفرات بقي في أواخر أيام بني العباس ، وهي الفترة التي أهملت فيها أعمال الري ، في وضع لا يستقر على حال تتقاذفه أمواج الاقدار في بحر تقلبات الطبيعة حتى دخل المغول البلاد فوجد الفرات في غمرة الاهمال والاضطراب المجال للتحول من المجرى الغربي الذي يسير بطريق الكوفة الى مجراه البابلي القديم •

١٦ ـ **الاحتلال المغولي واثره في انحطاط الري :**

وكان الاحتلال المغولي في القرنين الثالث والرابع عشر نقطة تحول في تطور الري في العراق فعندما سقطت الخلافة في بغداد وتدفق طوفان المغول لاجتياح العالـم نزلت الضربـة الاخيرة بجميع منشآت الري التي كانت قائمة في البلاد ، فأهملت السدود وراحت المياه تجري لطبيعتها دون مارقيب أو منظم ، فنتـج عن ذلك تراكم راسبات الغرين في الجداول والفروع وانتشـار الاهوار • يقول المستر لونكريك في وصف حالـةالري على أثر غزو المغول للعراق : « وكانت أعظم الاعمال التهديمية التـي ارتكبها هولاكو هي التخريب المتقن في السدود والانهـار ونواظـم الاسقاء التي كان تشييدها المحكـم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد • وقد تعذر القيام باصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطرابات في البلاد وفقدان روح العمل بين الاحياء من السكان القليلين بعد تلك المذابـح والتخريبات الهائلة ، وهو الامر الذي أدى أخيرا الى اهمال الانهار وتردي الحالة في مجاريها من جراء تراكم الغرين وتكاثره بحيث غـدت الانهـر مطمورة لا تستوعب الماء الكافي ولايمكن ضبطها عنـد الطغيان ، ولم يعد من الممكن استعادة الحالـة الى سابق عهدها في البلاد حتى يومنا هذا » •